

الجزء الثاني

وطن

obeikandi.com

الرسالة السادسة

وطن بعيد عن الوطن

عزيزتي السيدة ماري،

لم تكن هناك ولايات متحدة أمريكية وقت كتابتك لخطاباتك، لكنك عرفتِ بالطبع المستعمرة البريطانية غرب المحيط الأطلنطي، حيث هاجر الكثيرون من بلادك لتأسيس أعمال تجارية ومستوطنات ومزارع.

كثير من أبناء وطنك من المتحضرين وأصحاب المتاجر المتعلمين والتجار وأصحاب الحرف المهرة والمزارعين تطلعوا لحياة جديدة في هذه المستعمرات، كما أن نسل آل كويكرز الذين عاشوا شمال ميدلاندرز -القرية من بيت عائلتك "ثورسبي هول" - أقاموا مدينة شكّلت جزءاً مهماً من تاريخ أمريكا، إنّها مدينة الحب الأخوي "فيلادلفيا".

وقدم الهولنديون والسويديون والألمان أيضاً، وتعلّمت هذه المجموعات من المستوطنين بعد البقاء معاً مائة عام كيفية تقبل الآخر، واحترام الاختلاف في التقاليد والديانات.

وفي سبيل الحفاظ على ما يتمتعون به من ممتلكات واستقلال، ولمواجهة "الضريبة بدون تمثيل برلماني" تلك التي فرضها الملك جورج الثالث ابن الملك الذي كان في الحكم عندما سافرت إلى تركيا؛ قام هؤلاء "الأمريكان" بالتحالف معاً والفوز في معركة حامية لنيل استقلالهم، وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية.

لا أسرد لك كل هذا لأسخر من عدم قدرة ملككم القوي على الاحتفاظ بهذه المستعمرة، ولكن لأخبرك أن بلاداً رائعة قد وُلدت نتيجة لذلك، إنها

أول دولة ديمقراطية في العالم بأسره، فالمبادئ التي قامت عليها كانت ثماراً لجهود رجال رائعين حضر أغلبهم من الشواطئ الإنجليزية.

حينما ذهبت إلى تركيا أول مرة في صيف عام ١٩٧٨م حدث لي شيء عجيب، شعرت بأنني لم أذهب إلى بلد غريب، بل شعرت أنني عدت إلى وطني أمريكا، ذاك البلد ذي التنوع في العادات والأعراق والديانات. ولأنك لا تعرفين أمريكا؛ فأنا واثقة أنه من الصعب عليك أن تدركي ما أتحدث عنه؛ لذلك دعيني أحاول أن أشرح ذلك لك: أذكرك أنني وقت زيارتي الأولى لتركيا كنت أقيم في فرنسا سنوات، أنت أيضاً تعرفين فرنسا والفرنسيين جيداً؛ فقد قضيت بعض الوقت في ليون وباريس في طريق عودتك من القسطنطينية إلى إنجلترا، وكانت لك بعض الملاحظات الشائقة الصائبة حول المجتمع والحضارة الفرنسية؛ فقلت مثلاً: ”تفوق فرنسا على إنجلترا بنظافة أرصفة الشوارع، وبناء كل المنازل من الحجارة، وأن أغلب منازل الأشخاص رفيعي المستوى تزينها الحدائق“، لكنك لم تتحملي السيدات الفرنسيات، فهن على حد قولك: ”نافهات في اختيار ثيابهن ومتصنعات في زينتهن“، علاوة على انزعاجك من ”الإطراء الغث وقلم لوبران المتكلف“.

يعجبني هذا البلد وحضارته كثيراً، لكنني أقر أنه ليس مكاناً يسهل على غريب العيش فيه أحياناً؛ فكثيراً ما يشعر المرء في هذا المجتمع بالإقصاء لاختلاف محل ميلاده أو تراثه أو ديانته أو مهاراته اللغوية، بالإضافة إلى أن الثقافة الباريسية تسعى دائماً لتحقيق الرقي والكمال.

ومع أنني أجنبية فقد كان يُتوقع مني أن أسير وفق نفس هذه القواعد في السعي وراء التميز، وفي بعض الأحيان كان من الصعب تحمل ذلك. قارنوا معي، هذه تركيا بلد متسامح ومتقبل للآخر؛ عندما ذهبت إلى تركيا لأول مرة شعرت بالتححرر من هذا النسيج المجتمعي الصارم،

لم أشعر بأن الأشخاص يراقبون كل خطواتي في انتظار أن أخطئ، بل وجدتهم متسامحين وطيّين، مثلهم مثل أهل أمريكا حيث نشأت. قد يكون من الصعب أن أشرح لك ذلك يا سيدة ماري، لكنني عندما تعرفت إلى هذا البلد وقابلت أهله الودودين، أدركت أنهم سيفهمونني لأننا نتحدث نفس اللغة، لقد شعرت أنك ذاهبة إلى ثقافة مختلفة تمامًا عنك أمّا أنا فشعرت أنني عدت إلى وطني. وكلما عرفت عن تركيا زاد اقتناعي أنها تشبه بلادي أمريكا على مستويات مختلفة:

أولاً على المستوى الشخصي، نشأت في عائلة من الوعاظ والمعلمين، ولم أتخل عن نظرة سكان الغرب الأوسط المتطلعة نحو المدينة والأماكن الغريبة والثقافات الأخرى؛ فسهول الغزلان الواسعة التي رأيتها خارج سيواس بدت لي كحقول الذرة والقمح الواسعة في أمريكا، وهدير الجرارات ورائحة الطين والسماد أعادتني إلى البراري في حقل عمي في كانساس، أما إزناك فقد بدت مثل قرية صغيرة في أوهايو تصطف أشجار الجميز على جانبي شارعها الرئيس وذكرتني مدينة توقات بقرية من قرى رعاة البقر.

والحياة في هذه القرى تشبه الحياة في قرى الغرب الأوسط، حيث أكوام الحبوب والجرارات والمقاهي، يمكنك فقط أن تستبدلي المقاهي بحدائق الشاي، لكن الصداقات المتينة والحوارات المتبادلة حول المحاصيل والضرائب ستظل واحدة.

يطعم الناس في البلدين أحاديثهم بمقتطفات من النصوص الدينية، كما يتشابهون في دفاعهم الشديد عن القيم المشتركة الخاصة بالدين والعائلة، والأطفال، والأرض الجيدة، والمجتمع، والمشاركة، والبساطة، والإيمان بالله وطاعته، وحبّ الطبيعة، والحيوانات، والحياة اليومية، والحب، والزواج، والكفاح من أجل البقاء، وفوق كل هذا حب الوطن.

السؤال الآن: هل أتيت إلى تركيا في رحلتي الأولى متحاملة على الأتراك؟ لا أعتقد ذلك؛ لأنني أمريكية ولست أوروبية، فلست متأثرة بحصار الأتراك لفينا، بل إنني لأذكر وقوف الجنود الأتراك جنبًا إلى جنب مع أبناء وطني في كوريا، وانحيازهم إلى جانبنا في الناتو.

مجرد النظر إلى جغرافيا البلدين كافٍ لإيجاد القواسم المشتركة بين الولايات المتحدة وتركيا؛ فأمريكا بلد كبير، وتركيا بلد كبير أيضًا مقارنة بالبلاد الأخرى في أوروبا؛ فهي أكبر من فرنسا وألمانيا مجتمعيتين، والبلدان لهما جغرافيا متميزة؛ فكلتاهما تضم سبعة أقاليم متنوعة ومختلفة، وتكوينهما متشابه جدًا؛ فالشمال الشرقي، والأطلنطي، والجنوب، والبحيرات العظمى، والسهول العظمى، والشمال الغربي، والجنوب الغربي في الولايات المتحدة؛ كلُّها تشبه كثيرًا الأقسام السبعة لتركيا: هضبة الأناضول، والمرتفعات الشرقية، والجنوب الشرقي، والمنطقة المركزية، ومنطقة البحر الأسود، والبحر المتوسط، وبحار إيجه وتراقيا ومرمرة، وتركيا كأمريكا ثرية بالشواطئ والسهول والجبال وبعض الصحاري وبمناخها المتنوع، ويحيط بكتليهما بحران، وتعرض كلتاهما لتغيرات مناخية واسعة شديدة، بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية الخطيرة كالزلازل والأعاصير والعواصف والفيضانات والانهيارات الثلجية، والولايات المتحدة الأمريكية تمر فيها سلسلتان أساسيتان من الجبال من الشمال إلى الجنوب، بينما تمران في تركيا من الشرق إلى الغرب، والبلدان بهما أنهار عظيمة مثل: دجلة والفرات والميسيسيبي وأوهايو، وكلتاهما بلد القمم الجبلية المهيبة: (أارات، وأرجيز، وأولوداغ، وماكلني، ورينييه)، وتتخللهما سلاسل من البحيرات (بحيرات منطقة أغيردير، والبحيرات العظمى، وبحيرات الإصبع)، وبهما حياة برية خلاصة وطيور، وبهما وفرة في الموارد الطبيعية كالماء والفحم، بالإضافة إلى المحاصيل المتنوعة من الفواكه الاستوائية كالموز والموالح، وكل أنواع الحبوب الممكنة.

وبالنظر إلى تكوين المجتمع فهناك أوجه للتشابه أيضاً: فتركيا مثل أمريكا تعتمد نظام الكفاءة والاستحقاق؛ فالمجتمع يتكون من مواطنين وصلوا إلى مكائهم بالعمل الجاد، وليس نتيجة ما ورثوه من طبقة اجتماعية أو مزايا الميلاد كما في فرنسا وإنجلترا بلدك.

يوفر البلدان لمواطنيهما قدرة هائلة على الحراك الاجتماعي؛ فقطاع الأعمال التركي نشط جداً كما في أمريكا، ومستعد أن يدخل القرن الحادي والعشرين بخطى موازية لباقي العالم، وتركيا مليئة بأفراد أقوياء إيجابيين ذوي إرادة، عازمين على النجاح، لا يهابون الوقوع في الأخطاء، تماماً مثل مواطني بلدي.

لكن ربما يكون أكثر ما يشعرنى بتشابه البلدين هو ملامح السكان؛ فهناك أنواع كثيرة مختلفة من الأتراك! لقد تركت كل الثقافات أثرها على موروثات الأطفال الذين وُلدوا هناك: الرومان، والبيزنطيين، والفارسيين، والأرمن، والعرب، واليونانيين، والجورجيين، والبدو القادمين من وسط آسيا، والسلاجقة من إيران، والمنغوليين من الشرق والعثمانيين؛ فكما تتمتع تركيا بالتنوع الإقليمي الواسع فإن لديها تنوعاً بشرياً كألوان الطيف.

معنى أن تكون تركياً أن تكون مواطناً في الجمهورية التركية، فالكلمة تشير إلى الجنسية لا إلى الهوية العرقية.

الأتراك ورثة العادات الثقافية للدولة العثمانية ومثل التجديد التي تبناها أتاتورك والغرب.

نحن مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية نتفهم ذلك؛ فكلنا أتينا من أماكن مختلفة بلغات وديانات وثقافات مختلفة، واتحدنا بهدف بناء بلد عظيم.

ليس التشابه في سمات الأشخاص والأراضي فقط هو ما يجعلني أشعر أنني في وطني، بل إن مشكلاتنا متشابهة أيضًا؛ لقد رأيت قرى معدمة مليئة بأطفال جياع وبيوت مهدمة، بالفقر في تركيا الشرقية كما هو في أبالاتشيا، وحجم التباين بين الأغنياء والفقراء صاعق كما في أمريكا.

كذلك واجه البلدان مؤخرًا كوارث طبيعية قاسية: زلزال أزميت عام ١٩٩٩م، وإعصار كاترينا الذي ضرب نيو أورلينز عام ٢٠٠٥م، والمجتمعان يعانيان من مشكلات داخلية وعنف ونزاعات.

وكلانا وأأسفاه لديه مشكلات مع مجموعات ترفض الانضمام لحلم الديمقراطية، ومع ذلك ما زالت أمامنا فرصة لتحقيق هذا الحلم.

لدى عودتك إلى الوطن كتبت إلى القس كونتي ”لا يسعني سوى النظر بانحياز إلى بلادي“، وذكرت أيضًا أن جُل ما نحصل عليه من الترحال هو ”رغبة عقيمة في دمج المتع المختلفة وأسباب الراحة في أماكن مختلفة من العالم، ومع ذلك لا يمكن تحقيقها في أيّ منهم“.

أما أنا فلا أعود إلى بلادي بعد سفري إلى تركيا لأقارن نقاط تفوق بلادي، وعمومًا فقد ساعدني السفر إلى تركيا أن أشعر بالفخر بالإنجازات التي حققتها بلادي والبلد الذي زرته للتو.

إن أوجه الشبه بين البلدين تبرز لي بوضوح شديد الدروس التي يمكن أن يتعلمها بعضنا من بعض، حتى نبنى مجتمعًا أفضل للأمم التي نحيا فيها، ذاك الشبه ساعد غريبًا مثلي أن يشعر أنه من أهل البلد.

على أية حال فالشخص الذي يشعر دائمًا أنه في وطنه بعيدًا عن وطنه مواطن أمريكي من أوهايو في بلاط السلطان عثمان.

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة السابعة

وطني الحبيب!

عزيزتي السيدة ماري،

على منحدر جبلي خارج منطقة أضراروم تظهر لافتة ضخمة مكونة من مجموعة أحجار مطلية باللون الأبيض على شكل حروف، كتبها بكل عناية وحب جنود الجيش، ويمكن رؤيتها على بُعد أميال، واللافتة عبارة عن كلمة واحدة: *Türkiyem* (تركيتي: وطني الحبيب).

”تركيتي: وطني الحبيب“ يا لها من كلمة بسيطة تعبر عن فخر المرء ببلاده! لا داعي لقول المزيد، فكل شخص يمكنه تفسير الكلمة كما يشاء. حينما كنت أصدق في هذه اللافتة أدركت أن لها دلالة خاصة عندي بعد أن كوّنت مفهومي الخاص عن كلمة ”بلد“.

”تركيتي: وطني الحبيب“ ليست تركيا التي يعرفها ٩٩٪ من زوار تركيا وربما ٩٥٪ من الأتراك أنفسهم؛ فهي ليست تركيا التي تضمّ مدناً رفيعة المستوى وغنية ومصقولة مثل إسطنبول وأنطاليا وبورصة وأنقرة، بل إنها تركيا التي تضم سهول الأناضول؛ فقلبي معلق بشرق أنقرة.

أنتِ -كمعظم السائحين- سافرت إلى العالم الواسع المتنوع متعدد الجنسيات لمدينتي القسطنطينية وأديانوبل "أدرنة اليوم"، وقلتِ في رسالة كتبتها في أدرنة: "إن أخلاق البشر لا تختلف كثيراً كما يريد كُتّاب الرحلات أن يقنعونا"، ومع ذلك لم تحاولي المخاطرة بالابتعاد عن هذا الحيز العالمي الغني لاستكشاف الفرق، أو للتعرف إلى أهالي المناطق الريفية المجاورة لتلك المدن، أعتقد بشدة أنكِ كنت ستستمتعين كثيراً لو أنكِ فعلت ذلك!

معظم السائحين يعرفون تركيا بما يرونه في إسطنبول والشواطئ الجنوبية، ولكن تركيتي مختلفة؛ إنها تركيا الواقعية التي يعيش فيها المرء على الأرض يكدح ويعمل بجهد، إنها تركيا الهضاب الجافة لا تركيا الشواطئ المترفة.

من السهل الافتتان بلؤلؤة العالم إسطنبول، مبتغى كل إنسان، ولكنني وقعت في حب السهول الجرداء التي تشبه حقول وسط الغرب الأمريكي، وتعكس القوة المطلقة للطبيعة وحلم الإنسان في العمل لتحقيق المزيد، أغلب الناس ينظرون إلى هذه السهول فيرون أراضي مكشوفة مملّة، لكنني أراها مساحات مفتوحة حرة لا نهاية لها كالبحر، مليئة بالأمال.

حينما ذهبت إلى تركيا لأول مرة كانت قلة من الأجانب تأتي إلى مثل هذه الأقاليم، أما الآن فالجميع يهرع إلى إسطنبول لقضاء ست وثلاثين ساعة أو العطلة الأسبوعيّة، فها هم الأجانب يملؤون أسواقها، ويعيشون حياة المغتربين بكل معالمها، وهم يتركزون في الأغلب في إسطنبول التي تعد في الواقع مركزاً حضارياً ربيعاً لا يقل مستوى عن باريس ونيويورك.

لطالما شعرت أن إسطنبول نقطة التقاء تجمع بين سمات نيويورك والجزائر والبندقية، لكنها لا تزال منطقة حضرية خاصة بكل سماتها المتفردة.

والوضع في "تركيّتي" مختلف؛ فأنا أعشق السفر إلى المدن الصغيرة حيث الأسواق المحلية وعدد محدود من المطاعم أو المقاهي.

أعتقد أن الأمريكيان عندما يسمعون اسم تركيا يفكرون في مكان غامض غريب، ولا يعرفون فيها سوى مدينتين هما إسطنبول وأنقرة، لكنك قد تندهشين عندما تعلمين أن هاتين المدينتين لا تمثلان تركيا الحقيقية الكبيرة، تماماً كما يستحيل أن تمثل مدينتا نيويورك وبوسطن أمريكا التي ترعرعت فيها، فالريف الممتد خارج المراكز الحضرية الكبيرة يكاد يكون بلداً آخر؛ لهذا تحيّر الناس في سبب تفضيلي للقري المبنية بالجص والسهول المتربة الجرداء على الجبال والبحر والمياه الفيروزية للبحر الكاريبي والريفيرا بل على جنوب تركيا أيضاً، ربما أكون شخصية مختلفة غريبة، لكن ثراء التجارب التي مررت بها في تلك المناطق ليس له حدود.

”تركيتي“ بلد يقيم مهرجانات من كلّ لون وشكل؛ فعلاوة على المهرجانات الفنية الكثيرة المرموقة التي تُقام في مدنها الكثيرة مثل مهرجان ”البرتقالة الذهبية“ السينمائي في ”أنطاليا“ هناك مهرجانات متعددة لتكريم الفن الشعبي وأبطاله ”نصر الدين خوجا، ويونس أمره، وحاجي بكتاش“، أو للاحتفال بالمنتجات المحلية وتميزها مثل: مهرجان مصارعة الإبل في سلجوق ودينزلي، والبجع في بريجيك، وحلوى ”باور جام“ في مانيسا، ورياضة جيريت ”نوع من أنواع البولو يُمارس بطريقة الرجبي“ في قونيا وأرضروم، والأفاعي في ماردين، والفراولة في بارتون، والشاي في ريزي، والمشمش في مالاطيا، والطماطم في توقات، والبندق في أوردو، والعسل في تشانقورو، والطهاة في مينجين، والخزف في كوتاهيا، ومحصول العنب في كابادوكيا، والبطيخ في ديار بكر ”بلغ وزن ثمرة البطيخ الفائزة العام الماضي إلى ثمانية وتسعين رطلاً“، ومصارعة الثيران في أرتفين، والتين في جيرمينجيك، والفحم في زونجولداك، ورقص الدراويش ”المولوي“ في قونيا؛ لا شك أن هذه المهرجانات تتفوق على مهرجان ولاية أوهايو بفرق شاسع.

في "تركيتي" لا ينتظرنى البحر، أو المنتجعات، أو الأندية الراقية، أو أشخاص رائعون يرتدون أثواب السباحة، أو أندية الرقص، أو منحدرات التزلج، بل إن السحر يكمن في أشياء أخرى؛ إنه يكمن في المنازل الخشبية، والمراعي الجبلية، وأشرطة النذور المربوطة في الأشجار، وينابيع المياه المتدفقة على جانب الطريق، والشعراء الغنائيين والدرأويش، والجسور المٌحدودبة، وأحواض المياه، والغابات والأنهار الجارية، وعازفي "السااز"، والطيور المغردة، وأيام وجبات الأرز اللذيذة، واحتفالات الختان، والنوافذ والمداخل المليئة بالأزهار المزروعة في علب زيت زيتون فارغة، وأبراج الساعات، والمطاعم ذات الغرف الخاصة بالنساء، وحدائق الشاي المظللة بتعريشات العنب، والنساء اللاتي تذرّن البذور في الحقول أو تفرزن المشمش أو البصل، والمنازل ذات الهياكل الخشبية، والأودية الخضراء الخصبة، والكليم المغسول وقد وُضع في الهواء ليَجف، والستائر اللاسيه، والنساء المحجبات، والأبواب المصنوعة من الطوب المحفور، والأصوات الخافتة، والنوافذ المظللة بالمشربيات، والسهول المتربة، والأسقف المكسوة بالآجر، والحدائق المسوّرة التي تتسلق جوانب التلال، وحافلات القرى المكتظة بالأطفال والحيوانات وحقائب البطاطس والإطارات الاحتياطية أو أجزاء المعدات، والبحيرات المالحة في منتصف السهول الجافة، واللحم المشوي على أوراق العنب والغار، والعامل الذي يسير وحيداً على حافة الطريق ويده حقيبة أدواته، والأسقف الخشبية المحفورة والمطلية، والعربات التي تجرها الخيول، والينابيع الساخنة، والكهوف، والمزارعين المتأرجحين في الشاحنات في طريقهم إلى الحقول، والفتيان والفتيات الذين يكررون آيات القرآن ليحفظوها عن ظهر قلب، ومساقط المياه، وأصوات الطبول العالية المعلنّة عن حفل ختان أو زفاف، ومستنقعات القصب، والجرارات والعربات

التي تجرها الحمير، وحقول البطيخ والطماطم، والمدن المزينة بالقلاع والحصون التي تعلوها أعلام خفاقة برمز الهلال، والهدوء الشديد الذي تكاد تلامسه يديك، والذباب الطنان، والكليم الملون بألوان قوس قزح المشرقة الذي يغطي أرضيات المساجد، وكبار السن المتكئين على العصي في طريقهم إلى نادي القرية للقاء أصدقائهم، والأرصنة المنثور عليها لب دوار الشمس، وتربة الجنوب الشرقي الساخنة الملتهبة، والأحداث العائلية المفجعة، وحفلات الزفاف الرقيقة، والأغصان القصيرة، والتراب الأصفر، وحافلات نقل الركاب داخل القرى المنطلقة سريعاً، وخريف الأنهار، والمناظر الخلابة المتعاقبة في الطرق الجبلية الملتفة، والأخرفة مجزوزة الصوف أو مذبوحة، وتساقط الثلوج بسرعة وكثافة تسد الشوارع في ساعات قليلة، وال دراويش والبكتاشيين، والرجال الذين يقضون ساعات في رسم آيات من القرآن بالخطوط العربية المزخرفة، والمنازل العثمانية ذات الهياكل الخشبية، والطرقات المرصوفة بالحصى التي سار فيها جنود الحيشيين والفرس واليونان والرومان والسلاجقة والعثمانيين وجنود أتاتورك، والسهول الذهبية المترامية عبر الأفق، والينابيع الساخنة، والهزات الأرضية، والتاريخ الذي يطل عليّ من وراء كل حجر، والأسواق الأسبوعية الصاخبة، وقمم الجبال المكسوة بالجليد، ومتاجر الحلوى والمكسرات، وغابات التُّنُوب الكثيفة، والشعاب الجبلية، وأبراج المقابر المخروطية المليئة بالأضرحة المخضرة، وأسواق الخضراوات المفتوحة، والأسواق المسقوفة، والشوارع الخلفية التي تعج بالنجارين والحدادين وصناع السرج والسباكين، وكلاب الرعي الكنجال بلون السهول التي تلاحق الخرفان مغبرة اللون، وبيوت الطيور المليئة بالنُّحام الزهري، والأفق الذي تغشاه الحرارة، وقطعان الغنم عريضة الذنب وتراها ترغو، وطيور السنونو التي تهبط سريعاً، والأطلال المهجورة، ورؤية البحيرات الزرقاء المتلاثلة من

أعلى الطريق، والنساء اللاتي يراقبن الطريق من مقاعدهن خلف إطارات النوافذ الغائرة، والمقابر المليئة بالشواهد العتيقة المتهدمة، والسهول متناثرة الأجمات، والغابات شبه الفاحلة، والنساء الكرديات اللاتي يرتدين ملابس بألوان الزهور البرية المذهلة، والمروج الواسعة حيث تركض الخيول والأمهار بحرية، وشجيرات الزهور المتفتحة في كل مكان، وثمار التوت الأبيض الطازجة، ورائحة الدم والخبز الطازج والتراب والسماد وقشر البطيخ، والمنازل المشيدة بالخشب، والحجارة، والطوب اللبن، والتلال الخضراء المتقاربة، والخيام السوداء والأخرفة البيضاء، والبدو الرُحل وأصحاب المتاجر، والسهول المنخفضة الممتدة إلى سلاسل تلال لا تنتهي، والمنازل ذات الأرضيات الترابية المضغوطة، وأسراب الإوز أو الأغنام المتهداية التي تسد الطرق، ونقطة التقاء السماء بالأرض، وورق الإعلانات الصغير المصفر الخشن، وعصير المشمش الطازج، وتسلق الشعاب الجبلية، ورؤية بانوراما الكاملة للوحة السهول الخضراء المرقعة من الأعلى، والرائحة المنبعثة عن اشتعال السماد، ومذاق الماء من كوب مملوء من نبع متدفق على جانب الطريق، والبدر الكامل الذي يبدو حجمه وضوؤه ضعفهما في أي مكان آخر في العالم، والمناشف المعلقة أمام متاجر الحلاقين لتجف، والخيول المكتسية بمنسوجات مطرزة وخرز أزرق، والجسور القديمة، وتيجان الأعمدة الساقطة، والكهوف الغامضة، وآثار الحضارات البائدة منذ ألفي عام، ومظاهر الطبيعة ذات الأصوات العالية مثل الضفادع والحشرات والطيور والمياه الجارية، والمزارعين الكادحين، والحقول البنية التي تتناثر فيها أزهار دوّار الشمس الصفراء وثمار البطيخ الأصفر، والزوابع الترابية، والمدن التي يوجد فيها طريق تصطف على جانبيه سلسلة من المباني القديمة التي تعود إلى ثماني مائة عام ومبانٍ سكنية إسمنتية حديثة، والمدارس المكوّنة من فصل دراسي واحد، وأبراج تخزين

الحبوب، والجمعيات التعاونية الزراعية، والسهول الشاسعة جدًّا ولا تتسع لها عدسة الكاميرا متسعة الزاوية أو لا يمكنني رؤيتها كلها بنظرة واحدة.

هذه هي ”تركيتي“ التي أحبها حبًّا جمًّا، البعيدة عن إسطنبول المتحضرة الرفيعة المستوى، كيف تستطيع الشواطئ المحمومة وملاهي الرقص المليئة بالأجانب أن ترقى لمستوى إثارة أيِّ مما ذكرت؟ يا سيده ماري، أتمنى لو استطعت أن أكون مرشدتك في أرجاء ”تركيتي“، أنا واثقة أنك كنت ستعشقينها كما أعشقها.

صديقتكم

كاثرين براننج



صفائح زيت الزيتون



منزل شاكر أغا العثماني، بيرجي عام ١٧٦١م



سوق عثماني، أماسيا



الأم وبتتها، منطقة جاي



نزل "تاش خان"، أقيسهر عام ١٢٥٠م



مشهد من الشارع، بورصة



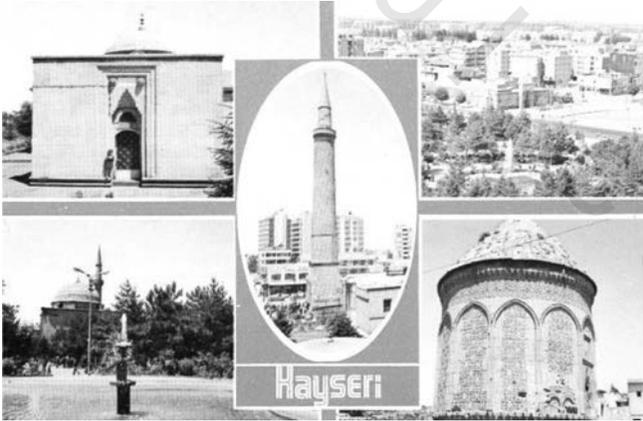
عبور جسر كوش في أماسيا



حارس القبر، ألانيا



مشهد من الشارع، إزنك



بطاقة بريدية من عام ١٩٧٨م



شارع الأطباء قسطنوني



يوم السوق، منطقة شاي



مشهد الغروب على بحيرة بيشهير



مشهد من الشارع، كوتاهيا



منبع نهر الفرات، بالقرب من أرزينجان

الرسالة الثامنة

تبننتي عائلة تركية!

إلى سعادت صوياشي هانم أفندي

عزيزتي السيدة ماري،

ثمة أمر يتعلمه المرء سريعاً جداً في تركيا، ألا وهو أن البلد لا يديره سياسة الحكومة أو أباطرة الأعمال أو الشيوخ على مآذنتهم العالية، بل تديره الأسرة، لن تصادفي مجتمعاً آخر يتسم بقوة وتماسك الروابط الأسرية في تركيا.

إن تماسك الأسرة أفضل سمة في أي مجتمع مهما كان مركزه على سطح الأرض، لكن الروابط الأسرية في تركيا أقوى منها في أي مكان آخر، إنك لتجد كل أسرة تُدار كأنها شركة مصغرة.

إن القيم الأسرية طريقة حياة وليست مجرد كلمات تتكرر في الخطاب السياسي أو الديني كما هو الحال في بلادي فالأسر عندنا أكثر تحرراً وتفككاً.

لقد اختبرت هذين الهيكلين الأسريين بنفسي يا سيدة ماري؛ فأنا أنحدر من أسرة مسيحية مترابطة من الغرب الأوسط، ومع أن والديّ كانا يتييمين فإن العمات والأعمام وأبناء العمومة كانوا بمنزلة مجموعة مترابطة سعيدة؛ ففي أيام الآحاد بعد القدّاس كان اثنا عشر شخصًا منّا على الأقلّ يلتفون حول مائدة أحدنا في ”دعوة الأحد“ الكبيرة، ومقابل هذا لي أصدقاء كثر علاقتهم بأسرهم غير وثيقة.

سيدة ماري، لقد تحديت والدك وهربت مع السيد ورتلي، أما أنا فتركت أسرتي في سن مبكرة لأعيش في الخارج، نحن الاثنتين نشأنا في ثقافات تشجع الأطفال على الاستقلال عن أسرهم منذ الصغر، والآن أعيش في مدينة تبعد ألف ميل عن أقرب قريب لي؛ لهذا قد يكون من الصعب علينا أن نفهم الروابط الإسمتية التي تربط الأسر التركية.

لقد حالفني الحظ ”وتبتني“ عدة أسر تركية، فأتاح هذا لي الفرصة أن أقارن بين أوساط الأسر التركية والغربية.

للأسف لم يحالفك الحظ مثلي يا سيدة ماري، صحيح أن الجميع استقبلك بالترحاب في بلاط وقصور السلاطين والحريم والسفراء، لكنك لم تجلسي حول مائدة الإفطار مع أفراد أسرة تركية، ولم تشاركيهم جلسات احتساء الشاي وسرد القصص، ولم تتح لك الفرصة لحمل أطفالهم الرضع بين يديك، وهكذا حُرمت من جزء كبير من تركيا.

شعرت أنا أيضًا بالترحاب والاحتراف من عدة جوانب في منازل صغيرة مكونة من غرفة واحدة كما شعرت أنت في صالونات الباب العالي، وكثيرًا ما يكون الاهتمام الذي تحيطك به الأسر التركية هائلًا أحيانًا، إنه شعور رائع.

ما سرّ قوة الروابط الأسرية في تركيا؟ أعتقد أن هذا راجع إلى إحساس الأتراك العالي بمعنى الأمة "ulus"، والشعور بالتحالف القبلي الذي ورثوه عن أسلافهم الأتراك.

والأمة تنظيم مجتمعي يحدد وظائف كل الأشخاص الأتراك: مثل التنظيم الإداري، والهيكل، والوظيفة، والسياسة، وأنماط حركة الرعي والهجرة، والقوات العسكرية، والخلافة، والسلطة.

مفهوم الأمة هو ما ساعد الأتراك على الهجرة بنجاح إلى الأناضول وتأسيس الدولة السلجوقية نواة تركيا الحديثة.

أما مفهوم الأمة اليوم فتمثل في شكل كل أسرة على حدة، وقادتها هم الآباء الأتراك المعروفون باسم "بابا".

في هذا الكيان تجدين كلّ العلامات المميزة في الحياة - كالميلاد والختان والزواج والوفاة - منظمة كما كانت في أمة الماضي، وتميزها طقوس محكمة ومكثفة، فالأسرة التركية الحديثة التي يديرها الأب ضاربة بجذورها في تقاليد "الأمة".

مظاهر التبرجيل المطلق للوالدين في تركيا مقدسة كقدسية أي أمر قرآني، فرجل الأسرة أو "بابا" يُعامل باحترام شديد وخضوع، يليه في السلطة الابن الأكبر "آبي: أخي الكبير" الذي يكون بمنزلة نائب عن الوالد في غيابه، وهذا الابن لا يُناديه إخوته وأخواته باسمه مطلقاً، بل دائماً ما يُنادى بلقبه "آبي: أخي الكبير".

ثمة أسماء أخرى تُطلق على مختلف أفراد الأسرة، تعتمد على درجة قرابتهم، سواءً كانت من جهة الأب أو الأم؛ فلن تجد في تركيا أحداً يُدعى "العم" أو "العمة" أو "أخا الزوج" فقط، بل يحصل كل فرد في الأسرة

على لقب دقيق يلتصق به، ويحدد دوره في الأسرة.

وهذه المصطلحات المختلفة التي تصف علاقات القرابة من أصعب التحديات في تعلم اللغة التركية وفهم الثقافة؛ فهناك أربعة ألقاب لأخت الزوج وحدها! وهكذا يا سيدة ماري، يمكنك أن تري أنه ليس مجتمعاً مفككاً.

إن الرباط الذي يجعل الأسر التركية متماسكة لهذا الحد بسيط جداً، هو الحب والاحترام.

في الواقع إن هاتين الكلمتين المهمتين اللتين تعلمتهما في بلدي تشكلان أساساً كاملاً للثقافة التركية بأوسع معانيها، تسعى كل الأسر جاهدة لتدريب أبنائها على هاتين القيمتين المهمتين: احترام الكبير والعطف على الصغير، فظاهرة تقبيل أيدي الوالدين والأقارب كبار السن شائعة في تركيا، وطقوس تقبيل يد الكبير التي تتضمن الانحناء وتقبيل اليد ثم رفعها لتلامس الجبهة من أكثر الدلالات المؤثرة التي رأيتها في حياتي.

تسعى الأسر التركية كما في ثقافات عدّة لتوفير كل الفرص المتاحة لأطفالها، حتى إنها تبذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً، ويسعدني أن أعلن أن أقوى حافز يحرك الآباء الأتراك هو ضمان حصول أبنائهم على تعليم جيد، فالآباء مستعدون لفعل أي شيء لتوفير هذه الفرصة لأبنائهم، فمنهم من يشغل عدة وظائف ويعمل طوال الوقت لكسب المال اللازم لشراء الكتب، وحقائب المدرسة، وتوفير نفقات الدروس الخصوصية الباهظة استعداداً للاختبارات، ودفع مصروفات المدارس الخاصة، أو حتى إرسال الأبناء للدراسة في أمريكا؛ وهو حلم كل والد.

يساهم الأخ الأكبر "آبي" أيضاً في مساعدة إخوته وأخواته الصغار، ويتشرف بدفع نفقات دروس أخته من ماله الخاص بدلاً من شراء أغراض شخصية لنفسه.

علاوة على ذلك يؤمن الأترك بقوة بأهمية الشهادات العليا؛ والأسر مستعدة -خاصة أسر الطبقة الأرستقراطية- لإرسال أبنائها للخارج للدراسة، ويشارك في هذا التشجيع التعليمي كل أفراد القرية، وإذا كان أحد الأبناء لا يتمتع بالقدرة أو المهارة التي تؤهله للالتحاق بالجامعة فإن أسرته تحرص على مساعدته في تأسيس عمله الخاص، بل تبحت له أيضاً عن شريكة حياة مناسبة.

ذات مرة كنت أزور مسجداً في بُنيان فدنا مني شخص وبدأنا نتحدث، ثم ذهب إلى بعض الأطفال المتحمسين الواقفين على مقربة منا وقال لهم: "أترون! إنها أمريكية وتتحدث التركية! ماذا تفعلون أنتم لتكونوا متميزين؟ انصرفوا وعودوا إلى منازلكم لتذاكروا!".

ومن الملاحظات الأخرى أن أفراد الأسر التركية متلاحمون ومترابطون بشدة؛ فهم يتصلون عدة مرات بعضهم ببعض على هواتفهم النقالة فقط للاطمئنان وسماع صوت القريب المحبوب، وهم يعسكرون في غرف المستشفيات عندما يمرض أحدهم، ويراعون المريض بطريقة تعجز عنها الممرضات المنهكات، كأن يراقبوه ويغسلوه وينظموا مواعيد تناوله الدواء، إنها الرعاية الطبية النابعة من الحب.

ولا أظن أن أشخاصاً كهؤلاء يفكرون في أهمية مجموعات الدعم أو فكرة التمريض الخارجي؛ لأن الأسرة تتولى مسؤولية هذا الدور في عملية الشفاء.

ومن العادات السعيدة الأخرى التي أستمتع بحضورها حفلات الختان، فبعد عامين من مغادرتك إسطنبول يا سيدة ماري أقام السلطان أحمد الثالث -الحاكم حينها- واحداً من أكبر الاحتفالات في التاريخ العثماني؛ إنه احتفال مشترك بختان أبنائه الأربعة، استمر الاحتفال خمسة عشر يوماً، واشتمل على مواكب استعراضية، ومفرقات، وسباقات بالقوارب، وعزف، ورقص، وسباحة، من المؤسف أنك لم تشاهدي كل ذلك!

صحيح أن احتفالات الختان اليوم كبيرة وتُجرى في فنادق فاخرة، إلا أنني أستمتع أكثر بالاحتفالات المتواضعة التي تُجرى في نطاق الأسرة، فأني صبي يبلغ الثامنة من العمر تقريباً يحظى بهذه الطقوس الخاصة بهذه السنّ، وتحرص الأسر على الاحتفال بذلك حتى تكون مناسبة لا ينساها الصبي مطلقاً، فيلبسونه زياً تقليدياً مزركشاً ويغرقونه بالحلويات والهدايا. وإذا كانت إحدى الأسر أفقر من أن تتمكن من إقامة حفل لابنها تكفل بال حفل أحد الأثرياء المحليين أو تتحمل المدينة نفقات الحفل؛ لذا كثيراً ما يسمع المرء في أيام الأحاد من فصل الصيف أصوات أبواق السيارات، ويرى صبيانا سعداء متأنقين مع أسرهم في زيارات للمواقع المقدسة في طريقهم لحفلات الختان.

أما أكبر دليل على قوة روابط الأسرة التركية فهو مائدة الإفطار؛ قدّمت وصفاً في إحدى رسائلك لمأدبة عشاء مع السلطنة، لكنني أؤكد لك أن مائدة الإفطار في تركيا تحظى بنفس القدر من الاهتمام ومراعاة التقاليد، فوجبة الإفطار في تركيا تحدد مسار باقي اليوم، يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، والحبّ يملأ المكان، وكل ثمرة زيتون على المائدة تبشر بالخير الذي سيعمّ اليوم وبالسعادة التي ستنتشر فور رفع المائدة، لا أحد يأكل وحده، ولا أحد يشرب فنجاناً من القهوة ويتناول قطعة خبز محمصة في الطريق إلى الخارج.

لا أحد يبدأ يومه بدون جرعة من الحب، ولا أحد يبدأ يومه دون المشاركة في مظهر من مظاهر الترابط الأسري، وموائد الإفطار الفاخرة في الفنادق التركية ليست سوى امتداد لهذه العادة الأسرية، وستجدين أن أكثر الفنادق تواضعاً في أفقر الأحياء تقدم وجبة الإفطار بكل عناية واهتمام وحب.

قد يكون "بابا" هو من له الأمر في الأسرة، لكن الأطفال في الواقع هم أصحاب الكلمة الأخيرة؛ ذلك أن الأتراك غارقون في حب أبنائهم ويدللونهم ويسمحون لهم بفعل أي شيء.

إن أوّل سؤال يُوجّه إلى أي امرأة هو "كم طفلاً لديك؟" كما أن قبور النساء العثمانيات مزينة بنقوش أزهار، ترمز كل زهرة إلى كل طفل ولدته المرأة، وفي القرى تُزرع شجرة كلما وُلد طفل.

أتعلمين أن تركيا هي البلد الوحيد في العالم الذي يخصص يوماً رسمياً للاحتفال بالسيادة الوطنية للأطفال؛ ففي كل عام في الثالث والعشرين من شهر نيسان/أبريل تستضيف تركيا عدة مهرجانات وفعاليات لتكريم الأطفال وضمان مستقبلهم وحريتهم ورفاهتهم.

ينتشر الأطفال في كل أنحاء تركيا، فنسبة ٧٠٪ من السكان تحت سن خمسة وثلاثين عاماً، وبوجه عام كل الأطفال ساحرون بأعينهم الواسعة وابتساماتهم العذبة، وهم دائماً يتلقون الأحضان والقبلات والرعاية والمداعبة.

أخبرني بستاني تركي ذات مرة أنه اختار هذه المهنة بالذات؛ لأنه شعر أن الأزهار كالأطفال، كل زهرة مختلفة وجميلة وتحتاج إلى الحب والرعاية، ففكر أنه لا يوجد في الحياة عمل يبعث على السعادة أكثر من عمل البستاني.

يتسم سلوك الأطفال الأتراك بالانضباط بوجه عام؛ سافرت في رحلة بالحافلة مدتها ثماني ساعات ويجلس في المقعد خلفي طفل في الثالثة من العمر ولم أسمع صوتاً طوال الرحلة، فالأطفال الأتراك لا يثيرون الجلبة في الأماكن العامة، بل يجلسون في هدوء مع ذويهم دون الحاجة إلى ألعاب أو أشياء لشغل انتباههم أو تسليتهم، بل يتعلم الأطفال الاعتماد الكامل على الذات منذ سن مبكرة، وهي من أعظم الميزات، ولا يمر يوم دون أن ترَي مجموعة أطفال تلعب كرة القدم، ففور أن تتوفر مساحة كافية وكرة يبدؤون اللعب، وقد تكون الكرة مجرد حجر أو قصاصات أقمشة بالية ملفوفة معاً، وقد رأيت أطفالاً في القرى يلعبون بعصي، وقطع من حبال، وقشر جوز، وأحجار، مبتكرين ألعاباً خيالية تؤنسهم لساعات.

عندما يغدو الأطفال الأتراك مراهقين غالباً ما يحتفظون بنفس الرقة والعدوية؛ ويندر أن ترَي شباباً يضحكون بصوت عالٍ، أو يلقون النكات الخارجة، أو يتبادلون السباب، أو يتدافعون، أو يتعاركون، أو يتصرفون بشكل غير لائق على الملأ.

والكلمة التركية التي تصف الشباب هي "delikanlı" وتعني "صاحب الدم الحامي"، لكن تجربتي مع المراهقين الأتراك أثبتت أنهم في قمة الأدب، غير أن هناك مجموعة من الشباب اليافعين المزعجين الذين لاحقوني باستمرار، وأصروا أن يرشدوني في تركيا بحجة تحسين لغتهم الإنجليزية، أحياناً يكونون مزعجين جداً ويرفضون الابتعاد، بالطبع يصعب عليّ تجاهل هذه الرغبة الحماسية في تقوية اللغة، وأرضخ في النهاية وأقضي معهم بعض الوقت، لكنه يكون أمراً مرهقاً ومزعجاً عندما يزيد عن حده، فكلما قضيت وقتاً مع أحدهم يظهر غيره، لكنهم لا يتسبون في أي أذى.

ثمة موقف حدث مع بعض الفتيان المراهقين في إسطنبول من شأنه أن يسلط الضوء على طبيعة الشباب الأتراك وتربيتهم: ركبنا القطار المعلق ذات مرة لصعود التل، وكانت هناك مجموعة من المراهقين الصاخبين يجلسون في العربة يضحكون ويمزحون ويتدافعون، وكان المقعد الوحيد الشاغر يتوسطهم؛ فذهبت لأجلس فيه لكن رفيقتي في السفر قالت: ”كلا! لن أجلس بجوار هؤلاء المزعجين“ لكنني ذهبت لأنني كنت أشعر بالحرارة وأكاد أفقد وعيي، ولم أعتبرهم سوى مجموعة من الصبيان يتصرفون كعادتهم.

بعد أن جلست تحدث أحد الفتية لزملائه بصوت منخفض قائلاً: ”هلاً هداًتم! ألا ترون المرأة الأجنبية الشقراء التي تجلس بجوارنا، من الأفضل أن نحسن التصرف بدلاً من أن تأخذ انطباعاً سيئاً عنا“؛ بالطبع لم يعلم الفتية أنني أتحدث التركية وأفهم كل ما قالوا، ولم يعلموا مدى امتناني لهم لأنهم يعرفون كيف يحسنون التصرف في الأماكن العامة، خاصة عند وجود ضيف أجنبي.

يستمتع الأتراك بكسب الأصدقاء أكثر من أي عمل آخر، يفعلون ذلك بدعوة الشخص للانضمام للأنشطة العائلية كأنه فرد من العائلة، وقد نزلت ضيفة على عدد من المنازل التركية، وشعرت في كل واحد منها أن الأسرة تبنتني، ربما أنزل عندهم فترة بعد الظهر أو يوماً أو أسبوعاً، كانوا يشعرونني دائماً أنني جزء من حياتهم، وكانت أكواب الشاي المتعاقبة تمهد الطريق دائماً لهذا الشعور بالمؤاخاة.

على سبيل المثال قضيت فترة بعد الظهر ذات مرة أشاهد الصور الفوتوغرافية بصحبة أسرة القائم على دير دراويش إقليم أماسيا، وقضيت يوماً أقشر الجوز في ساحة دار عثمانية عمرها مائتا عام خارج قسطنطيني

بصحبة مزارع وأسرته، وفي نهاية اليوم ساعدت ابنته في إعادة الأبقار من المرعى إلى الحظيرة في الطابق الأرضي من المنزل، وقضيت يوماً آخر بصحبة جدة تعيش في منزلها خارج مدينة كيرشهير، وقدمت لي الأسرة خبز الشابورة المخبوز حديثاً مع الشاي، وتلقيت دعوة لمنزل حارس متحف في مدينة سافرانبولو، جمعت لي زوجته ثمار التين الطازجة من الحديقة لأتناولها مع الشاي.

وعندما تحين لحظة الرحيل تكون الطقوس متشابهة؛ إذ تتبادل العناوين حتى نظل نتبادل الرسائل والهدايا والأخبار والصور، أو أظل أتذكرهم في أفكارى ودعواتي، وقد بكى البعض عند رحيلي، وبعض النساء سكين الماء على درج الباب تيمناً بأن تسير رحلتي بسلاسة كسيلان الماء، وقدم لي البعض هدايا وزهوراً عند ركوبي في الحافلة؛ إن أسرتي الحقيقية لا تغدق عليّ بمثل هذا الحب والاهتمام، هل تفعل أسرتك ذلك يا سيدة ماري؟

هل تصدقين أنني كدت أصبح فرداً في أسرة تركية في نيويورك؛ تأملي: ذات مرة وأنا في المطار طلبت مني امرأة تركية لا أعرفها من قبل أن أعتني بابنها البالغ ستة عشر عاماً في رحلته الأولى إلى تركيا.

أما أقرب الأسر التركية إلى نفسي فهي الأسرة التي تبنتني واعتبرتني ابنتها الكبرى "أبلة"؛ إنها أسرة محسن إلياس صوباشي في قيصري، منحتني الأسرة اسماً تركياً وعاملتني باحترام واهتمام ومراعاة أكبر مما تلقيت أنتِ خلال زيارتك الدبلوماسية الرسمية يا سيدة ماري، أصبحت واحدة منهم وصديقة لهم، وتعرفت برب الأسرة عن طريق رسالة كهذه؛ إذ أرسلت إليه لأثني على الكتاب الذي ألفه حول تاريخ قيصري فردّ عليّ، وعلى الفور بدأنا نتبادل الرسائل حتى استقبلني في منزله، وهو منزل هادئ وجميل يقف عاليًا بين التلال خارج قيصري، يستقبل النسيم البارد، ويطل على الفوهة البركانية لجبل أرجيس.

والمنزل تعمه السكينة، ولا تُسمع فيه أصوات مزعجة أو موسيقى صاخبة أو حتى صوت التلفزيون؛ إنه بيت رجل نبيل "أفندي" يمتلك سبعة آلاف كتاب، ويحتفظ بها بعناية شديدة في مكانها المخصص في الطابق الثالث بمكتبه.

يقع المنزل في منتصف حديقة تزخر بأشجار الكرز والتفاح والمشمش والفواكه المزهرة، بينما تفيض أحواض الخضراوات بثمار الطماطم والفلفل.

والمنزل بالكامل مفروش بأثاث مريح وبه مساحات خالية وإضاءة جيدة ومزهريات رائعة، أما نساء المنزل فهن نساء قويات، فزوجته وبناته الثلاث يشرفن على كل شيء، ويدرن المنزل كأنه مصنع زُيِّت آتاه جيداً فهي تعمل بكفاءة وسلاسة.

وأول ما يراه المرء عند مدخل البيت ثلاثون زوجاً من الأحذية مختلفة المقاسات بانتظار أي ضيف ليلبسها ويدخل، وكثيراً ما يزورهم الجيران لاحتساء الشاي أو القهوة وتبادل الأخبار والقبل والقال.

وقد شيدت الابنة المتزوجة بيتها بجوار بيت الأسرة، واعتاد زوجها أن يحضر للأسرة هدايا خاصة يحضرها بنفسه، مثل البهارات المطحونة حديثاً وأوعية اليخنة الكبيرة التي تكفي لإطعام الإنكشاريين كلهم.

في هذا البيت تُسرد أبيات الشعر بعد العشاء بحضورهم جميعاً، وفيه يشعر الجيران بالترحاب الشديد فيقطعون الحديقة سيراً على الأقدام في طريقهم إلى منازلهم.

إنه بيت منظم لن تجد فيه شيئاً مهملاً أو في غير مكانه أو صحناً غير مغسول، في هذا المنزل يتم تحضير الوجبات الضخمة، وخاصة وجبة

قيصري الشهيرة "فطائر اللحم" (الرافولي التركي)، في مطبخ مجهز جيداً، وتقوم البنات بتقديمها بكياسة على صينيات رقيقة.

إنه منزل يتم فيه تقديم خمسة عشر طبقاً تحت تعريشة عنب في الحديقة خلال وجبة الإفطار في الصباح مبكراً؛ لذا فهذا المنزل أجمل من أي قلعة من قلاع إنجلترا يا سيدة ماري، أو أي قصر من قصور السلاطين التي زرتها.

إنه منزل ينبض بالحياة تسكنه أسرة متحابّة؛ وهذا ما يجعله منزل الأحلام، أصبح لي فيه مكان بفضل طيبة الأسرة التركية التي تبنتني وعاملتني فرداً من أفرادها.

صديقتكم

كاثرين براننج



صبيان وكلاب الكنجال التركية، نكسار



الإفطار مع سعادت هانم في قيصري



مراسم الزفاف في توقات



احتفال عائلي بالختان، أنقرة



عربة خيل مطلية، بازار



قرية اليوروك



أول يوم في الدراسة، إغيردير أيلول/سبتمبر عام ١٩٩١م

الرسالة التاسعة

السرفي اسم عظيم الشأن

عزيزتي السيدة ماري،

أنت تحملين لقب "ليدي" (سيدة) بصفة رسمية؛ فأنت ابنة مالك مزرعة إنجليزي وزوجة سيد نبيل، عندما سافرتِ إلى تركيا أخذت معك لقبك الذي اكتسبته بفضل ميلادك وتراثك ونشأتك وثروتك وتعليمك وعلاقاتك؛ فتفتحت كل الأبواب في وجهك فوراً بسبب منزلتك العالية، ومعارف زوجك السياسيين، وجواز سفرك الدبلوماسي.

لقد منحك لقب سيدة بكل ما يحمل معه من تراث مميزة خاصة سبقتك قبل أن تعبري الحدود وتجذبي الأنظار إليك؛ ناداك الكل بلقب "السيدة" أينما ذهبتِ كما اعتدت أن يفعل الناس جميعاً في إنجلترا، لكن لعلك لم تنتهي أن لقب "سيدة" لا يمنحك ميزة خاصة في تركيا، لأن كل امرأة هناك "سيدة".

وأنا أيضاً "سيدة" في تركيا، سيدة تختلف عنك إلى حدٍ ما، لكنني سيدة بالرغم من ذلك؛ لم أولد لمالك مزرعة، لكنني اكتسبت النبل من كوني امرأة؛ فالأتراك يضعون كل النساء في مرتبة خاصة، منذ أيام إلهة

الأمومة لدى الحيشيين، وعندما يخاطبك أحد يتوجه إليك بلقب ”هانم“ أي سيدتي، فيستخدمون هذا اللقب بعد اسمك الأول إذا كانوا يعرفونه وتصيحون ذات لقب حالاً.

أنا لست مجرد كاثرين في تركيا بل ”كاثرين هانم“ أينما ذهبت، وهذا اللقب يجعلني أنظر لنفسني بطريقة مختلفة، وأشعر بالتميز نوعاً ما، وبأنني محظوظة لأنني وُلدت في هذه الفئة النبيلة فئة النساء.

يتعامل الأتراك مع لقب سيد (بيه) وسيدة (هانم) بخصوصية شديدة، ويستخدمونها في كل مرة يتحدثون إليك؛ فلا يقولون مثلاً: ”السيد ديفيد جونز“ أو ”السيدة سارة هارت“ بل ”ديفيد بيه“ و”سارة هانم“، وليس من الشائع استخدام الاسم ثنائياً في تركيا، وبالرغم من كل اتجاهات التفرنج التي شاعت خلال السنوات الأخيرة فإن الأتراك ما زالوا يتعاملون بالأسماء الأولى فقط؛ فاستخدام الاسم ثنائياً يبدو غريباً عليهم، وهم يعتبرون أنه يفضي جواً من الرسمية الشديدة ويمنع التواصل بشكل ملائم. حينما كنت في تركيا يا سيدة ماري، كان الوضع كذلك؛ إذ كنت تتعاملين مع معارفك فاطمة وأحمد باسمهما الأول، وهي حرية وألفة لم تكوني لتحظي بها في وطنك إنجلترا.

في الواقع لم يستخدم أحد اسم عائلته في تركيا إلا منذ فترة قريبة، بل عاش الأتراك قروناً وهم يستخدمون الاسم الأول فقط، أو كما هي العادة المتبعة في الدول الإسلامية يستخدمون لقباً مثل: ”علي مبارك“ أو ”محمد الصقر“.

ساد هذا النظام قبل ظهور مصطفى كمال أتاتورك، الذي أخذ على عاتقه مهمة سن قانون إصلاح من شأنه أن يغير للأبد طريقة التعامل بالأسماء في تركيا.

كان "قانون التسمية" عام (١٩٣٤-١٩٣٦م) خطوة متعمدة في طريق الفرَنجة، علاوة على عدد من الإصلاحات الاجتماعية الموجهة سياسياً التي شنها خلال الأعوام الأولى للجمهورية التركية.

تبنى "قانون التسمية" تشريعاً يفرض على كل مواطن أن يقوم بتسجيل اسم عائلته، الأمر الذي أربك الأتراك وتركهم في حيرة ابتكار أسماء لأنفسهم، ومع أن الأتراك المتمدين لم يجدوا مشكلة في هذا القانون الجديد، فإن سكان الريف وجدوا صعوبة في إدراك المغزى من هذا القرار، وفي آخر الأمر تم تبني عدة أنماط لاختيار الاسم وتحديد ما هو مهم.

توضح أسماء العائلة القيم المجتمعية السائدة في ذلك الوقت، التي ما زالت إلى حد ما سارية إلى يومنا هذا.

وكان من أوائل الأنماط لاختيار أسماء عائلية تحديد العلاقة العائلية التي تعكس الاحترام البالغ للكبار الذين تحدثت عنهم في رسالتي السابقة، وظهر ذلك جلياً في استخدام كلمة "أوغلو" (ابن)، وإلحاقها بالاسم؛ فهنا في تركيا من العادي أن يكون اسمك الثاني "ابن صانع البنادق" مثلاً.

يعرف الأتراك تماماً من هم ومن أين أتوا، ويفخرون بانتمائهم لتلك المنطقة؛ لهذا يختارون في الأغلب أسماءً تعكس هذا الفخر مثل "أحمد قونبالو أي أحمد من قونيا"، ويفخرون بأسلافهم العظماء ويختارون أسماء وطنية للقبائل العظيمة، سواءً كانت من نسل أبناء آسيا الوسطى أو السلاجقة أو العثمانيين، مثل: "علي سلجوق أوغلو أي علي ابن السلاجقة"، أو "محمد كارامان أوغلو أي محمد ابن الكرامان"، أو ألقاب السلاطين العثمانيين المشهورين مثل: "يلدرم أي الصاعقة"، و"ياووز أي العازم"، أو أسماء بعض السلالات القبلية

الرحالة مثل "كليتشليلار أي السيّافة"، أو "كارني بويوك أي أصحاب البطون الكبيرة".

وعلى مستوى أوضح كثيرًا ما يختار الأتراك أسماء أشياء شائعة محببة وملهمة مثل: "أسلان أي الأسد"، و"بوزكورت أي الذئب الرمادي"، و"سياه بيتشاك أي السكين الأسود"، و"أوزكايماك أي الزبد الخالص".

أنا أفضل بوجه خاص أسماء العائلة التي تم اختيارها لأنها جذابة وشاعرية أو بسبب ما تستحضره من معانٍ محببة مثل: "كولن أي المبتسم"، و"يوجيل أي المُعظم"، و"يغموردريلي أي القادم من الوادي المطير"، و"جوكديمير أي السماء الحديدية"، و"بويوك دوغاني أي البدر المكتمل"، و"جوموشكمر أي الحزام الفضي"، و"أكدومان أي الدخان الأسود"، و"كارادومان أي الدخان الأسود"، و"دوست أوغلو أي ابن الصديق الغالي"، و"أسكي بهليوان أي بطل المصارعة القديم"، و"بيشكنسوت أي اللبن المحضّر جيدًا"، و"تاتليس أي صاحب الصوت الجميل" و"تشملي بل أي ممر أشجار الصنوبر".

من أسماء العائلة المبتكرة جدًّا تلك التي تُختار لأن الشخص يتسم بميزة بدنية ظاهرة مثل: "تشولاك أوغلو أي ابن الرجل ذي اليد الواحدة"، و"أوكسوز أوغلو أي ابن اليتيم"، و"بوسكوللو أوغلو أي ابن الرجل ذي الشُّرّابات".

أما أسماء العائلة المفضلة لديّ فهي التي يتم اختيارها لتحديد المهنة؛ فأنا أرى أنّ في ذلك تتجلى أسمى الصور لفخر الأتراك بمهنتهم، ومن هذه الأسماء على سبيل المثال: "فهوجي أي صانع القهوة"، و"أوكجو أوغلو أي ابن النبال"، و"منانجي أوغلو أي ابن صانع البيض المخفوق"، و"لبليجي أوغلو أي ابن محمّص الحمص"،

و”مومجو أوغلو أي ابن صانع الشمعدان“، و”يورجانجي أوغلو أي ابن صانع اللحاف“، و”فندكتجي أوغلو أي ابن زارع الفستق“؛ فهذه الأسماء ستظل تذكر الأتراك بطريقة حياة سادت في تلك الفترة من تاريخهم.

أما اليوم فاختيار اسم العائلة غالبًا سيكون مثلًا ”عليّ ابن مطور برامج الحاسوب“، لكن في عام ١٩٣٤م كانت الأوضاع مختلفة.

ورغم مرور أكثر من خمسة وسبعين عامًا على تبني قانون التسمية لأتاتورك ما زال الاسم الأول هو السائد؛ فبمجرد التعارف بين شخصين يبدأ التعامل بينهما بالاسم الأول، الأمر الذي يخلق شعورًا بالألفة والمودة اللتين تُدهشاننا في أحوال كثيرة نحن أبناء الحضارة الأكثر تحفظًا.

تعلمت في نشأتي أن لا أنادي شخصًا باسمه الأول إلا إذا سُمح لي بذلك، أما هنا فالعلاقة وثيقة منذ البداية، وتحتاج عملية رفع الكلفة هذه إلى اعتياد من الغربيين.

بالرغم من كل جهود أتاتورك فما زال الأتراك حتى يومنا هذا يفضلون مناداة أحدهم باسمه الأول، ولم يعتادوا على استعمال اسم العائلة في كلّ المواقف.

ولم يبدأ دليل هاتف إسطنبول في سرد الأسماء أبجديًا باعتماد اسم العائلة إلا في عام ١٩٥٠م، أي بعد وقت طويل من تبني قانون التسمية، وعملت سابقًا متطوعة في جمعية خيرية تركية مقرها في الولايات المتحدة، وأوكلت إليّ مهمة تحديث قاعدة بيانات أسماء الأعضاء التي اكتشفت لاحقًا أنها مرتبة وفق الاسم الأول.

والأسماء الأولى مبتكرة وممتعة بقدر أسماء العائلة؛ ففي الماضي كانت الأسماء التي استخدمها الأتراك العثمانيون مستوحاة من طبيعة

العرب والمسلمين، أمّا اليوم فهناك اتجاه حديث لاختيار أسماء الأطفال التركية الأصل (أصلان، وأورهان، وأوزير، وتورهان، وكويلاي، وتيمور، وإلهان) أكثر من الأسماء المتأثرة بالتقاليد الفارسية والعربية.

وعلاوة على التفضيل المتزايد للأسماء التركية التقليدية ذات الأصول العائدة إلى آسيا الوسطى، بدأت تظهر أسماء أوروبية وأسماء غريبة مثل اسم "تايفون" الذي وجدته غريباً إن لم يكن شاذاً.

تكون الأسماء الأولى مثلها مثل أسماء العائلة ملهمة وشاعرية وجميلة؛ فالأتراك يميلون لتسمية الصبيان أسماء قوية وحماسية، مثل: "جنكيز" و"تيمور" و"يلماز"، والاسم الذي أفضله هو "طارق" أي النجم الساطع في السماوات.

أما الفتيات فيحصلن على أسماء رقيقة وعذبة، وعادة ما تكون أسماء مخلوقات طبيعية مبهجة أو أوصافاً لأفكار شاعرية، مثل: "سندس" و"لؤلؤ" و"أحلام" و"نبح العسل"، وأكثر اسم أفضله هو "إريم أي حديقة الجنة".

إذا أضفت اسماً أول نابضاً بالحياة إلى اسم عائلة مميز، فغالباً ستكون النتيجة ملحمة متكاملة، مثل "يلدرم أكبولوت أي السيد سحابة البرق البيضاء" أو "أوزديمير كالباكثشي أوغلو أي السيد الحديد الخام ابن صانع قبعات الفرو" أو "إلهان ديميركيا أي السيد صخرة الفولاذ المنغولي" أو "كايا أوزتوبراك أي السيد صخرة الأرض الحقيقية" أو "دورسون ديليجول أي السيد الزهرة البرية المزهرة دائماً"، وهذه مجرد أمثلة أعجبتني.

هل يتخيل شخص أن يكون اسمه "اللورد سحابة البرق البيضاء"؟ كم تمنيت أن يكون اسمي "الزهرة الحريرية" أو أي اسم مماثل! لو كان لي أخ اسمه "طارق" فربما يصبح مستكشفاً أو رحالة عندما يكبر،

لكن اسمي الأول عادي جداً، ذات مرة سألني صديقي التركي الشاعر: "ما معنى اسمك يا كاثي؟" وكم شعرت بالحرج عندما لم أجبه؛ لأنني في الحقيقة لا أعرف معنى اسمي ولا سبب اختيار والديّ له!

حينها أدركت مدى إجداب حضارتنا الغربية التي تمنح الأطفال أسماء لا معنى لها، وتحرمهم من الأسماء الملهمة وفرصة النمو وتحقيق مغزى تلك الأسماء؛ لهذا قدّرت الأتراك المبدعين الذين ينسبون لأبنائهم سمات، مثل: الأمل، والقوة، والشعر.

نظرًا لأن صديقي رجل تركي مسؤول؛ قرر منحي اسمًا تركيًا، وتوصل إلى اسم على وزن اسمي الحقيقي وفي الوقت نفسه يحمل معنى يلائمني؛ وهو "قدرية"، ويعني الشخصية الموقرة المقدرة الجليلة.

واتضح لي أنه اسم قديم، لكنني كلما قدّمت نفسي باسم "قدرية" جاء رد فعل الأتراك مخالفًا تمامًا لرد فعلهم عندما أذكر اسمي الحقيقي. بالطبع يسهل عليهم حفظ هذا الاسم ونطقه مقارنة باسمي الإنجليزي، لكنه فوق كل شيء يميزني بأنني امرأة تستحق الاحترام والتقدير؛ ولهذا سأظل ممتنة للأبد لصديقي الذي منحني هذا الاسم، جعلني أشعر بالترحاب وبأنني جزء من الثقافة التركية، وقد أصبح اسمي الآن "قدرية" بالنسبة لأي تركي أعرف إليه، وبالنسبة لجميع أصدقائي الأتراك.

وبخلاف هذا الاسم حصلت على عدة ألقاب أيضًا كلها تستخدم مع لقب سيدة؛ فقد أسموني "السيدة السابحة" و"سيدة الخان" و"سيدة الزهرة الصفراء" و"سيدة العيون الباسمة" و"سيدة العيون الزرقاء"؛ بالطبع لا يمكنني نسيان هذه اللفظات المبدعة الصادقة لأصدقاء منحوني اسمًا بسيطًا.

بالفعل لكلّ مسمّى من اسمه نصيب كما تقول المقولة القديمة، إذا عمّ تخبرنا أسماء الأتراك؟ تخبرنا أنه شعب معتر بتراثه وأهله ومهنة؛ شعب يحب الطبيعة والجمال بصدق؛ شعب يحب أن يحلم ويتمنى أن يخلق هوية قوية لأبنائه، تخبرنا عن الجانب الإبداعي والترفيهي في شخصيته؛ فهذه الأسماء التركية تجعلنا نكتشف شعباً محترماً وودوداً، حقاً إنه يمكن لشيء بسيط كالأسماء أن يخبرنا بالكثير عن هذا الشعب.

هل فكرت يوماً يا سيدة ماري في اسم العائلة الذي ستختارينه إذا أتحت لك الفرصة؟ حقاً سيكون هذا من أصعب الاختيارات، على الأرجح سأختار لنفسي اسم "السيدة قيّمة الكتب"، وأنت سيكون اسمك "السيدة صاحبة القلم المتدفق"، لكنني بالرغم من كل شيء أتفق مع الأتراك؛ فمن ذا الذي يحتاج إلى اسم عائلة! وأخيراً أظن أن اسم "السيدة قدريّة الزهرة الصفراء" يلائمني تماماً.

صديقتكم

قدريّة براننج

الرسالة العاشرة صباحات سعيدة!

إلى معلماتي التركيات في الماضي والحاضر

عزيزتي السيدة ماري،

من بين التعليقات الأكثر تأثيراً في نفسي وكنت قرأتها في ”رسائل السفارة“ تلك التي كتبتها إلى أختك من فيينا:

”تتجسد أقصى سعادة في الحياة في محادثة منتقاة مع عدة أشخاص نكنّ لهم التقدير“

إنها كذلك بالفعل، ولعل هذا هو سبب اهتمامي الشديد باللغات الأخرى؛ فهي تسمح للمرء بالقيام بتلك المحادثات المنتقاة مع ”أشخاص يقدرهم“ من مختلف بقاع الأرض، وقد كان هذا حافزي الأساس لتعلم اللغة التركية؛ إذ أدركت أنني إن أردت حقاً التعرف على هذا البلد وأهله فلا بد أن أتحدث لغتهم، وما أشد غفلتي حينها عن التحديات التي سأواجهها!

أنتِ أيضاً أيقنت أن تعلم اللغة التركية سيمنحك تميزاً في بيتك، كما سيساعدك على الاطلاع على المؤلفات التركية، وهو أمر أثار اهتمامك أكثر من أي شيء آخر، تلخص هذه المعاني عبارة لأتاتورك محفورة فوق مدخل مبنى علم الإنسانيات في جامعة أنقرة: ”العلم هو المرشد الحقيقي في الحياة“؛ ونظراً لإيمانك بهذه العبارة كانت دافعاً لك لبدء برنامج تدريبي صارم لتعلم اللغة التركية قبل أن تصلي إلى القسطنطينية.

يبدو أنك لم تواجهي صعوبة كبيرة في تعلم اللغة التركية، إنها الحقيقة، أنت تعلمت اللغة اللاتينية قبل أن تستكملي الثامنة من العمر، ولا بد أن أقرّ أنني أشعر بالغيرة قليلاً من قدرتك على التعلم بسرعة! ربما يرجع الفضل إلى معلمك الممتاز؛ فبعد مغادرة فيينا مكثت في بلجراد ثلاثة أسابيع فتعلمت اللغة التركية على يد أحمد أفندي الذي قلت عنه: ”شرح لي آياتاً كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا، فهو شعر مقفى، له جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدة العاطفة ومفعمة بالحياة...“

لقد فتح لك أبواب عالم الأدب العربي، والفارسي، والعثماني، ولا شك أنك كنت طالبة استثنائية؛ إذ أرسلت إلى صديقك أليكساندر بوب بعد أسابيع قليلة بعض ملحوظاتك حول اللغة التركية، قلت في رسالتك: ”إن اللغة المستخدمة في البلاط تختلف كلياً عن لغة عوام الأتراك“، وأوضحت له أسلوب كتابة الشعر بإرسال قصيدة لأحد النبلاء، وتباهيت أمامه بسعة علمك الأدبي حينما قلت: ”كما ترى فقد قطعت شوطاً كبيراً في تعلم لغة الشرق“.

لا بد أن أتعرف أنني مذهولة من سرعة تعلمك كل ذلك في وقت قصير، واعجباً فأنت التقيت فاطمة ”الجميلة كالملاك“ مرّة أخرى

في القسطنطينية بعد مرور عام كنتِ قادرة على التحدّث معها باللغة التركية، وهو أمر مثير للإعجاب بالفعل! وأرسلتِ رسالة إلى صديق بعد مرور عام على وصولك، وتحديدًا في أبريل/نيسان عام ١٧١٨م تقولين فيها: ”أصبحت أتحدث التركية على نحو جيد، وأسعدني الحظ بتكوين صداقات مع نساء تركيات أعجن بي، ويمكنني أن أفخر بأنني أول امرأة أجنبية تحظى بهذا الشرف“.

عقب وصولك إلى القسطنطينية تابعت برنامج تعلمك الذاتي، ووضعت نظامًا يوميًا صارمًا لتعلم اللغة، وقد وصفت لصديقك بوب جدول أنشطتك التدريبية الأسبوعي الذي اعتبرته أهم من مشاغلك في إنجلترا فقلت: ”أسعى جاهدة لإقناع نفسي أنني أعيش حياة متنوعة ومنسجمة أكثر منك، وأن مراقبة طائر الحجل يوم الاثنين، وقراءة الأدب الإنجليزي يوم الثلاثاء، وتعلم اللغة التركية يوم الأربعاء - وأنا أتقنها جيدًا الآن- ودراسة المؤلفين الكلاسيكيين يوم الخميس، والكتابة يوم الجمعة، والانهماك في الخياطة يوم السبت، وتبادل الزيارات والاستماع إلى الموسيقى يوم الأحد، ذلك كله أسلوب مناسب لقضاء الأسبوع أفضل من الجدول الروتيني الدائم في لندن“، نعم تعلم اللغة قد يصبح حقًا مغامرة مثيرة وجذابة.

غير أنك لست الشخص الوحيد الموهوب في تعلم اللغات؛ فالأتراك ماهرون في ذلك أيضًا، وربما يرجع ذلك إلى مهارتهم الفطرية، أو إلى وجودهم الدائم في مفترق طرق لغويّ، علّقت في رسالة لك بتاريخ ١٦ آذار/مارس عام ١٧١٨م على سعة معرفتهم باللغات المختلفة:

”...أنا أعيش في مكان يعتبر أفضل تمثيل لبرج بابل؛ ففي منطقة بيرا يتحدثون التركية، واليونانية، والعبرية، والأرمنية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والوالاكية، والألمانية، والهولندية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والمجرية؛ والأكثر من ذلك أن هناك عشرًا من هذه اللغات مستخدمة في بيتي: فسائسو الخيل عرب، والخدام فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيتي أرمنية، وخادماتي روسيات، وهناك ست خادמות أخريات يونانيات، ومدير المنزل إيطالي، والجنود الإنكشاريون أتراك، فأصبحت أستمع باستمرار إلى هذا المزيج من اللغات، وهو ما يترك انطباعًا استثنائيًا على الأشخاص الذين يولدون هنا، فهم يتعلمون كل هذه اللغات في الوقت نفسه دون أن يتقنوا أيًا منها بالقدر الكافي الذي يؤهلهم لاستخدامها في الكتابة أو القراءة، وثمة عدد محدود من الرجال والنساء والأطفال الذين يعرفون كلمات بخمس أو ست لغات... قد يصعب تصديق هذا الأمر، وأنا أرى أنه أحد الأمور اللافتة للنظر في هذا البلد، كما أنه ينتقص كثيرًا من مزايا سيداتنا اللاتي يدعين العبقرية الفذة بفضل معرفتهن السطحية باللغة الفرنسية والإيطالية“.

هناك عدة لغات ”مختلفة“ يتحدثها الأتراك حتى يومنا هذا: العربية في محافظة هاتاي، والكردية في شرق تركيا، واللغات الأوروبية التي تستخدمها العائلات الشامية القديمة في بيرا ”الفرنسية واليونانية والإيطالية غالبًا“، وقد اكتشفت لغة أخرى جديدة في إسطنبول: هي لغة الأسواق، كم تدهشني مهارة أصحاب المتاجر والباعة -الذين يتعاملون مع السياح- في الانتقال بسلاسة ويسر بين الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية، واليابانية أحيانًا بدون أدنى مجهود، وهم لا يتحدثون هذه اللغات فحسب، بل يتمتعون بمهارة تحويل العملات المتعددة ذهنيًا؛ فيمكنهم حساب ثمن أي سلعة بسرعة فائقة تنافس سرعة الآلة الحاسبة.

ليتنى أستطيع التفاخر بمهاراتي في اللغة التركية كما تفاخرين بمهاراتك أمام صديقك بوب، ومع أنني قد حظيت بعدة معلمين ممتازين للغة التركية، فلم أتمكن من إتقانها تمامًا، يمكنني قول أي شيء أريد، لكنني عندما أتحدث التركية أرى في أعين المستمعين صراعًا لفهم ما أحاول قوله، أو أجد أعينهم تبرق بدهشة لدى سماع عباراتي المفككة، قضيت أعوامًا عدة في تدريس اللغات الأجنبية وتشجيع الآخرين على تعلّمها، وأدرت واحدة من أكبر مدارس اللغات في العالم؛ وهذا يعني أنني ملّمة بالتحديات ومشاعر الإحباط والسعادة المصاحبة لتعلّم لغة جديدة، بل إنني أشهد أن اللغة التركية قد أمدتني بنصيب وافر من التحديات ليست اللغوية فحسب بل الثقافية أيضًا.

أدركت مبكرًا أن القاعدة الأولى للتواصل في العائلات التركية هي نفس القاعدة التي تحكم كل علاقات التواصل، ألا وهي الاحترام؛ فالأتراك يهتمون جدًا بالتواصل مع الآخر بأسلوب يعكس قدرًا كافيًا من الاحترام، وهذا الاحترام يعتمد على عدة عوامل منها السن، والثروة، والمعارف، والمنصب الذي يحتله الشخص في مهنته أو مجتمعه، والويل لمن لا ينجح في إظهار القدر الملائم من الاحترام للطرف الآخر، إن التواصل عند الأتراك يعني في المقام الأول إبداء الاحترام بترك الطرف الآخر يتحدث مطولًا دون مقاطعة، والإنصات باهتمام لما يقول، ويُحظر معارضة الطرف الآخر؛ لأن هذا قد يعتبر دليلًا على مجاهرة العدا، والأتراك حساسون جدًا تجاه هذه النقطة، تعلمت هذا الدرس بالطريقة الصعبة، لأنني اعتدت في ثقافتي -وخاصةً في مدينة نيويورك حيث إيقاع الحياة السريع- على إجراء عدة محادثات في آن واحد، أما في فرنسا فالاعتراض أثناء المحادثات أمر متوقع؛ لأن المرء إذا لم يعترض فهذا يعني أنه غير منتبه للكلام الآخر، لكن الأمر مختلف في تركيا.

وبعيداً عن مجرد تبادل الحديث، فمن الضروري فهم الشكليات الصغيرة الواجب مراعاتها في كل الحوارات الناجحة، فعلى سبيل المثال ليس من المستحب الاقتراب من شخص وطرح سؤال مباشرة دون الاستهلال بكلمة: ”مرحباً“ أو ”عذراً“ أو ”أنا آسف على الإزعاج“، إلى غير ذلك، بل إن الأتراك غالباً ما يبدوون حديثهم بالكلمة البسيطة الرقيقة *Acaba* التي تعني ”أتساءل...“ أو ”ياترى هل يمكن هذا...؟!“ وسرعان ما يدرك المرء أنه إذا لم يراع هذه القواعد والشكليات البسيطة فإن علاقته بالآخرين ستحيد عن الصواب، وسيُنظر إليه أنه شخص فظ، فمثلاً إذا اقترب منك شخص وعرض المساعدة في توجيهك إلى أي مكان تريد، فلا بد أن تقبل عرضه الصادق وأن لا ترفضه وإن كنت تعلم جيداً المكان الذي ستذهب إليه؛ لأن رفض مساعدته تصرف غاية في الغلظة، ويجب أيضاً دائماً قبول كوب الشاي المقدم إليك، ولعل أكثر الحالات لسوء الفهم اللغوي التي تحدث للأجانب في تركيا تكون بسبب كلمة ”لا“؛ فعندما يرغب شخص تركي في الرفض لا يقول ذلك، بل يعبر عنه برفع حاجبيه بجديّة وصرامة، وإصدار صوت طقطقة من فمه، مع إمالة الرأس إلى الوراء قليلاً، وأحياناً يلاحظ المرء كلّ هذه الإيماءات أو واحدة منها فقط، ومع أنها قد تكون غير واضحة غالباً لكنها مستخدمة، ونادراً ما تُنطق كلمة ”لا“، بل تُستخدم الإشارات للتعبير عنها؛ لهذا لا بد من الانتباه للإشارات، ومحلّ سوء الفهم أن الأجانب الذين لا يتلقون إجابة على سؤالهم كثيراً ما يظنون أنه قد تم تجاهلهم، في حين أنهم قد تلقوا إجابة بالفعل عبر هذه الإشارات الصامتة.

لعل قواعد التواصل العالمية تحمل أهمية قصوى في تركيا بفضل الوعي الشديد لإبداء الاحترام، ولتفادي حالات سوء الفهم ينبغي ملاحظة الأمور الخفية لا الأمور الجلية فحسب، فكل أنواع التواصل

تحمل ثلاث رسائل مختلفة: الرسالة التي تريد إرسالها، والرسالة التي تخرج من فيك، والرسالة التي تصل بالفعل إلى الطرف الآخر ويؤولها وفق مستواه العقلي وتفكيره، فكل شخص يجلس معك في الغرفة سواءً كان في القرية أو في المتجر أو في مركز حضاري أو في اجتماع أعمال في المدينة يتصرف وفقاً لتأثير الحوار عليه، أو بحسب علاقته بالآخرين، والأجانب الذين يراعون هذه النقطة وينتبهون لإبداء الاحترام الواجب يسهل على المجتمع تقبلهم.

من المفيد أيضاً محاولة البحث عن الدعابة في مواقف التواصل الغريبة التي تحدث يومياً؛ فلا ينبغي اعتبار أي لقاء أو موقف من المسلمات، مع التسليم بأن المرء لن يفهم كل شيء، حتى عندما يتم تفسير المواقف ربما يعجز المرء عن فهمها لأنه بكل بساطة ليس تركياً؛ فمواقف كثيرة ربما تكون شائعة أو عادية لكن نظراً لأنني أعجز عن فهم الدافع وراءها تبدو محيرة في نظري، قيل لي ذات مرة إنني أشبه الفرس، وهو تشبيه تركني منزعة عدة أيام؛ لأنه يعتبر إهانة صريحة في ثقافتني، ولم أعرف إلا بعد مرور وقت طويل كيف يقدر الأتراك الخيل تقديراً شديداً؛ حينها فقط أدركت أنني تلقيت واحدة من أسمى المجاملات في الواقع.

في السنوات الأولى التي قضيتها في تركيا كان من النادر جداً أن أجد أجنبيّاً يتحدث اللغة التركية، خاصة المناطق الريفية التي أكثر السفر إليها، وكان من الشائع أن تتسبب عبارة بسيطة أقولها بالتركية مثل ”مرحباً، صباح الخير، هلاً تدلّني على طريق المسجد الكبير!“ في تدافع الأتراك المفاجئ حولي كسرب طير في حقل جبوب، أظنك واجهت مواقف مشابهة يا سيدة ماري؛ ففي رسالتك لصديقتك السيدة بريستول

في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م حكيّت كيف جذبت أنت وزوجة السفير الفرنسي أنظار الجميع في نزهتكما:

”خرجت معها منذ عدة أيام في جولة حول المدينة في عربة تجرها الخيول وقد رُفِعَ غطاؤها، وبصحبتنا موكب مشترك من الخدم، يسبقه الحراس الذين اجتذبوا الناس لرؤية مشهد لم يروه من قبل، ولن يروه بعد؛ إنهما سفيرتان شابتان مسيحتان لم يسبق لهما المجيء معاً إلى البلاد، ولا أظنّ أن هذا سيتكرر، يمكن لسيادتك أن تتخيلي حشد المتفرجين الضخم الذي وقف يراقبنا في صمت مطبق، لو أن أحد هؤلاء العامة فكر أن يتجاوز حدوده فإن الجنود الإنكشاريين لم يكونوا ليترددوا عند أول حركة أو موقف غريب في الانهيار عليه بسيوفهم المعقوفة...”

قد يكون جذب كل هذه الحشود مخيفاً في بعض الأحيان، وقد شعرت في عدة مواقف بالخوف حتى أدركت أن هؤلاء الأشخاص مجتمعون حولي بدافع الفضول المحض، وحينما فهمت أخيراً أنهم ليسوا مجتمعين حولي بسببي، ولكن بسبب أخطائي التركية ولهجتي الغريبة شعرت بالراحة، في رأيي إنها المرة الأولى التي يستمع فيها معظم هؤلاء الأتراك إلى لغتهم بلسان أجنبي؛ فحداهم الفضول إلى معرفة كيف سأركب العبارات وأختار الكلمات، وفوق كل شيء أرادوا الاستماع إلى لهجتي، لقد اكتشفت أن نطق التركية بلهجة مختلفة قد يساعد كثيراً في تلقي خدمة رائعة في المطاعم؛ ففور أن أجلس يهرع إليّ خمسة نادلين لتلقي طلباتي، وتعديل المنديل، وصب الماء لي، وكل ذلك بهدف الاستماع إلى لهجتي الغريبة.

صحيح أنني حينما سافرت إلى تركيا في البداية لم يكن هناك سوى مدارس قليلة لتعليم اللغة التركية، وعدد محدود من كتب القواعد، وانعدام تام للكتب الدراسية الخاصة بتعليم اللغة التركية للأجانب، لكن صارت اللغة التركية الآن تُدرّس في الجامعات والمدارس في مختلف أنحاء العالم، والأترك يؤلفون الكتب الدراسية بغزارة حول تعلم اللغات الثانية، وهناك مسابقات لغوية لصغار الطلاب الذين يتعلمون التركية، وتبنى الأترك الإطار الأوروبي الموحد لإرشادات تعليم اللغات في مدارسهم قبل أن أتيناها بوقت طويل.

ومع ذلك ظلّ تعلم اللغة التركية صعبًا ومحيرًا في نظري، وكان أصعب شيء إجراء مكالمة هاتفية؛ لأنني أرتبك وأقترف أخطاء شنيعة تنتهي بفترات صمت طويلة بيني وبين الطرف الآخر، ولأن إجراء مكالمة أمر مقلق؛ فإنني ألقأ غالبًا لكتابة ما أود قوله في ورقة، والقراءة منها أثناء المكالمة، ولاحظت أنني إذا أردت التأكد من معلومة فإن سؤال امرأة يكون أفضل؛ لأن لغة النساء أسهل في الفهم ولعل النساء في مختلف أنحاء العالم تميل للحديث بنفس اللكنة! وخلال المحادثات الطويلة غالبًا ما أصاب بالإحباط والإرهاق والتعب من المجهود العقلي المضني الذي أبذله لاختيار كلمات مفهومة وتركيبها في عبارات ذات معنى، أو جرأ من الانتباه المستمر ومحاولة فهم كل شيء، وهو ما ينهكني، وفجأة يتوقف عقلي عن العمل، ويكون الحل الوحيد أن أرحل متمنيًا ألا يعتبرني الآخرون غير مهذبة أو ينقصني احترام الآخرين.

بقدر صعوبة تعلم اللغة التركية تبدو سهلة جدًا بفضل المساعدة التي يقدمها لك الأترك عندما تحاول التعبير عن نفسك؛ فهم يشجعونك على البحث عن الكلمات والعبارات للتعبير عن أفكارك، وعندما تتحدث

بلغة تركية ركيكة لا يقاطعونك مطلقاً، بل يكملون الحوار معك، وهم في ذلك مختلفون تماماً عن الفرنسيين المتأهبين دائماً لتصحيح أي خطأ طفيف يرون أنه قد يسيء إلى لغتهم، أما الأتراك فهم يشجعونك كفرس منطلق في مضمار السباق، ويحمسونك دائماً بتهنئتك على الوصول إلى خط النهاية عندما تتمكن من إنهاء عبارة بنجاح، بالإضافة إلى كل معلميَّ فإن البلد كله كان مكرِّساً لتعلم اللغة التركية.

علاوة على ذلك فإن حرص الأتراك على إبداء الاحترام خلال التواصل أمر يرحب به الأجانب ويقدرونه، فالأتراك ينتظرون حتى تنتهي تماماً مما تقول وإن كانوا لا يفهمون كلمة مما قلت، وكثيراً ما يومتون برؤوسهم، لا يصحح الأتراك مطلقاً أخطاءك اللغوية -فذلك يوحى بالتناقض والاعتراض- أو ينظرون إليك باستهجان وعدم فهم وهم مقطوب الجبين، وتجدهم يكررون اسمك باستمرار في سياق الحوار لتظل منتبهاً ومركزاً، وعندما يشعرون أنك لا تفهم ما قيل فإنهم يتوقفون ويعيدون صياغة الفكرة بكلمات وعبارات يوقنون أنك ستفهمها، فصبر الأتراك لا حدود له، ومن المستحيل أن ترتكب خطأً لغوياً فادحاً؛ لأن الأتراك لن يتركوك تصل إلى هذه المرحلة، فبمجرد أن يشعروا أن الأمور ليست على ما يرام يبدؤون في مساعدتك بهدوء؛ إذ يصعب عليهم فهم ما تحاول قوله كما يصعب عليك فهم ما يقولونه، لكنهم لا يبدون ذلك قط، إنهم سادة في التواصل لأنهم يراعونك على طول الخط، وهذا يعني أن طبيعة الأتراك الحقيقية تظهر في علاقات التواصل مع الأجانب؛ إذ تتجلى سمات الاحترام والطيبة والكرم والصبر وروح الدعابة في أوضح صورها.

إذا كانت اللغة التركية صعبة إلى هذا الحد فلماذا أثار على تعلمها؟ فضلاً عن ترقب تلك "المحادثات المنتقاة" وقراءة أشعار نديم فهناك

أشياء كثيرة تجذبني في اللغة التركية، فمن الناحية اللغوية يعتبر تركيب مفرداتها الإلصاقية مذهلاً؛ إذ يضيف المرء للكلمة اللواحق واحدة تلو الأخرى مثل مقطورات، وكما هو الحال في اللغة الألمانية فإنني أستمتع بالعثور على الفعل في اللغة التركية في آخر الجملة كالمقطورة الأخيرة للقطار، فيفسر ويوضح كل الأسماء والصفات السابقة له، كم تحيرني إمكانية بناء عبارة كاملة من كلمة واحدة تقف في منتصف الجملة! وبالمثل تحيرني الجمل التي تبدو -على عكس اللغة الإنجليزية- مركبة من النهاية إلى البداية أو بالمقلوب، ويبهمني وجود زمن "الماضي غير المشهود" في اللغة التركية الذي يجعلك تروي أحداثاً لم ترها أو تسمع عنها مباشرة، فهو يسمح لك أن تكون مجرد ناقل لأخبار يُحتمل ألا تكون صحيحة، ويذهلني وجود زمن يمكنه أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً بحسب الموقف، فعلى سبيل المثال هذه العبارة "مكتب البريد الذي أمامه المرتدية السترة الحمراء -المستعدة لشد شعرها- الأجنبية تقف" ليست كلاماً مبهماً، بل إنها عبارة تركية مثالية التركيب؛ لهذا تجعلني اللغة التركية منتبهة دائماً لأنني لا أعلم موقعي في الجملة، في المرات النادرة التي يتمكن فيها عقلي من فهم الرموز اللغوية المستحيلة لقطار الكلمات المتراص في الجملة أشعر أنني فككت شفرة سرية مُحكمة.

أحبُّ أيضاً صوت الحديث باللغة التركية؛ فعندما يتحدث بها الرجال يصدر صوت أشبه بتدفق المياه في غدير مشجر، وعندما تتحدث بها النساء (خاصة نساء إسطنبول) يصدر صوت أشبه بحديث طائر مغرد، ويسعدني استعارة الأتراك كلمات كثيرة من اللغة الفرنسية في مجالات الإدارة والأزياء والفنون؛ فقد سهل ذلك الأمور عليّ كثيراً لأنني غالباً ما أجد كلمة مألوفة، وبالإضافة إلى الاستعارة المبدعة من لغات أخرى تسعدني قدرة الأتراك الفنية على ابتكار كلمات جديدة

تواكب التقدم الحضاري، مثل ”حاسب المعرفة“ إشارة إلى الكمبيوتر و”هاتف الجيب“ إشارة إلى الهاتف المحمول، وتعجبنى أيضاً قوة وصرامة بعض صيغ الأمر التي تستطيع بقوتها وقف صاروخ في الفضاء: ”*Yapma! Ayıp! Dur!*“ (لا تفعل ذلك! عار عليك! توقف!)، ومن المتع الحقيقية في اللغة التركية آلاف الأمثال التي تزخرف الحديث؛ فالأتراك يحبون استخدام العبارات التراثية التقليدية، ولديهم باقة متنوعة منها، ومن هذه الأمثال الشعبية: ”الحمار لن يقدر عصير الفاكهة“، و”المصارع المهزوم لا تنهكه المصارعة“، و”مشتري البقول العفنة رجل أعمى“، و”من يدخل حماماً تركياً فسيحرق“، و”ثمة أسد في كل قلب“، و”الكفن لا جيوب له“، و”الديك الذي يصيح قبل الموعد سيقطع رأسه“، بل إن هناك معاجم كاملة مخصصة لتلك الأمثال.

أسعد بسماع الكلمات الرقيقة التي يتبادلها الأتراك في الحياة اليومية، مثلاً ”سلمت يدك“ لمن يظهو أو يفعل شيئاً ممتازاً، و”شفاك الله“ للمريض، و”الله يعينك“ عند المرور بعمال يعملون بأيديهم، والعبارة المؤثرة ”عسى أن تكون أسوأ أيامنا كهذا اليوم“ التي تُقال في المناسبات السعيدة، وتمتع اللغة التركية أيضاً ببعض الخصائص الرائعة، وأبرزها كلمة *Yok* التي تحمل معاني عدة، بدءاً من ”لا“ وصولاً إلى ”حتمًا أنت تمزح“ و”إياك!“ أما العادة الخاصة المفضلة لديّ فهي تمنني صباحات وأمسيات سعيدة للآخرين، وعندما استفهمت عن معنى ذلك كان الرد نظرات مستغربة؛ إذ يبدو أنهم بسخائهم غير المتناهي لا يمكنهم تمنني صباح سعيد واحد فقط للآخرين، بل لا بد من تمنني حياة مليئة بالصباحات والأمسيات السعيدة.

قضيت وقتًا طويلاً في ترجمة القصص والأشعار التركية إلى الإنجليزية، وواجهت تحديات تفوق كل التحديات التي تواجه المترجمين عادة، أنت أيضاً يا سيدة ماري شاركت أحد أصدقائك رسالة حب مسلية قمت بترجمتها، وفي أحيان كثيرة يكون من الصعب جداً نقل هذا التدفق في المشاعر إلى لغة إنجليزية سلسة، ربما لأن تركيب العبارات التركية دائري وليس خطي كعبارتنا الإنجليزية، سيدة ماري، لقد اعترفت بعد ترجمة القصيدة بما يلي: ”لا يمكنني أن أحدد إجمالاً مقدار نجاحي في الترجمة، وأظن أن لغتنا الإنجليزية غير كافية للتعبير عن هذه المشاعر القوية التي نادراً ما نختبرها، ونريد أيضاً مثل ما في اللغة التركية من هذه الكلمات المركبة المؤثرة الشائعة“، الترجمة تشبه الجهة الأخرى من السجادة؛ إذ تستطيع رؤية الألوان، وتحديد دقة عدد العقد، وملاحظة أي خطأ ارتكبه النساج، وتستطيع أن تحدد فوراً مدى مهارة النساج، فينبغي أن تنظر إلى الترجمة من أوجه متعددة لتمكن من الحكم على جودة العمل والمجهود المبذول فيه وتقدير جماله الكلي.

عقب أشهر من دراسة اللغة التركية وصلت إلى حائط سدي يا سيدة ماري، مع أنك موهوبة وتتقنين عدة لغات، فقد خشيت أن تفقدي لغتك الإنجليزية في سعيك لملأ رأسك بلغات أخرى كثيرة: ”يستحيل على إنسان واحد أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقاناً تاماً كما يستحيل عليه أن يسيطر على عشر ممالك مختلفة، أو يحارب عشرة رجال في آن واحد“، لكن هذا الصراع في تعلم اللغة التركية مجز؛ لأنه ساعد كلتنا أن نعيش في تركيا بوصفها أجنبية وليست سائحة، وساعدنا على كسب صداقات ومشاركة الحياة مع الآخرين، وكما قلت عن صديقك أحمد: ”لا يمكنك تصور مدى سعادته النابعة من قدرته على الحديث معي“، وكذا سعادتنا بالحديث معهم.

في إحدى رسائلك الأخيرة كتبت إلى صديقة تخبرينها عن مدى أسفك لمغادرة تركيا بعد أن تعلمت اللغة، لكنك حتماً تعرفين يا سيدة ماري أن المرء قد يرحل عن البلد لكنه لن يفقد اللغة التي تعلمها مطلقاً، فأول جمهورية هي جمهورية اللغة.

مع تمنياتي بأسيات سعيدة
قدرية براننج



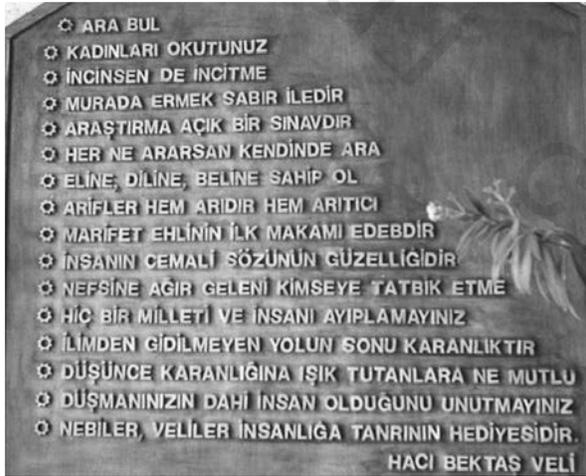
مقولات للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا) ويُفترض أن يكون محل ميلاده
في قرية هورتو



كاتب عثماني بريشة بيليني



ذكرى في مدينة كرامان؛ هذه اللوحة تشير إلى أنّ إمارة الكرامانيين هي أول إمارة تعترف بأنّ اللغة التركية هي اللغة الرسمية



مقولات حاجي بكتاش ولي

الرسالة الحادية عشرة

أشعر بالراحة هنا

عزيرتي السيدة ماري،

ثمة سؤال يوجه إليّ باستمرار، سواءً من الأتراك أو غيرهم، وهو عن سبب ترددي على تركيا عامًّا تلو الآخر، وعادة ما يأتي هذا السؤال عقب سؤالي عن سبب حضوري إلى تركيا في المقام الأول، إن السفر في حد ذاته يعد تحديًا ومتعة، وخاصة إلى تركيا، وكما ذكرت في إحدى رسائلك المبكرة يا سيدة ماري: السفر إلى تركيا أشبه بعرض أوبرا، ”هذا البلد بلا شك أحد أعظم بلدان العالم؛ كل ما رأيته حتى الآن جديد عليّ، كأنني أرى مشهدًا جديدًا في الأوبرا كل يوم“، عقب رحلتي الأولى في عام ١٩٧٨م بدأت أدرك حقًا مزايا السفر، واكتشفت أنني أستمتع بملاحظة ما بين الناس من اختلاف، لكنني أحتاج إلى بذل مجهود كبير للتعرف عليهم وكسر حاجز القوالب والأنماط الشائعة، وبالطبع تطلب هذا الجهد زيارة البلد عدة مرات.

نحن متشابهتان جدًّا يا سيدة ماري، وعلى الأرجح كنا سنشكّل رفقة سفر ممتازة؛ فأنا أيضًا بدأت أهتم بالحياة الاجتماعية والإسلام، وعلمت

نفسى اللغة التركية والشعر بكل حماس، وزرت المساجد والآثار القديمة، وسافرت وحدي بدون زوجي، أنا مثلك مهتمة بحياة النساء وقضاياهن من تعليم وصحة وتكافؤ فرص وزواج، وأشكك مثلك في الديانة التي أعتنقها بمقارنتها بديانة أخرى، تمكنت كلتانا من الانفتاح على قضايا عدة لأننا امرأتان أجنبيتان تتمتعان بمكانة خاصة.

إن سفر المرء -خاصة منفردًا- يتطلب دافعًا قويًا بالقدر الكافي ليتمكن من الصمود أمام عقبات مثل الحرارة، والتعب، والشهية، والقلق، والخوف، والقصور الذاتي والميل الجبلي للكسل، عندما يكون المرء في مكان غريب فإن المواقف البسيطة كسوء الفهم المتبادل والحزن واللقاءات القصيرة تمنحه فهمًا عميقًا لنفسه وللبلد الذي جاء منه.

هذه هي الأسباب البسيطة الممتعة التي تجعلني أحب السفر بوجه عام؛ فهو يتيح لي فرصة التعرف على أصدقاء جدد، وتذوق أطباق جديدة، واكتشاف ألعاب ورياضات جديدة، وإعادة التعرف على أصدقاء لا أراهم سوى مرة كل عام، ومناقشة مختلف الموضوعات لساعات بلا توقف، والتقاط صور فوتوغرافية، والرسم والتلوين، والكتابة والقراءة، وتناول ثلاث وجبات يوميًا، والاستمتاع بأوقات الشاي والمرطبات، ومراقبة عجائب الطبيعة والإنسان، خلال رحلاتي يمكنني أن أسير على قدمي طوال اليوم، وأنام بعمق طوال الليل، وأستطيع أن أفضي وقتي في الهواء الطلق وسط الطبيعة، أراقب الأشجار وأنصت إلى الطيور وأتنفس بعمق.

غير أن السفر إلى تركيا يوفر لي أكثر من ذلك؛ فهو يمنحني الوقت لأستغرق في أحلام اليقظة، خاصة أثناء رحلات الحافلة الطويلة، ويمنحني الوقت لأرتب الكتب في مكتبة حياتي ترتيبًا يلائمني، تساعدني هذه الرحلات الطويلة عبر السهول المترامية أن أفعل ذلك، فهي تمنحني

الوقت لأجلس مع نفسي في هدوء وأنصت إلى صوت أفكاري، ويساعدني السفر إلى تركيا أيضاً أن أتعافى من جراحي، فأحياناً تمر على المرء لحظات يشعر فيها بقواه تخور، أو يشعر بالخوف من الخروج من خلف الستار للوقوف في دائرة الضوء على مسرح حياته المهنية، أو يشعر أن الحياة ستتوقف بعد فقد الحب، أو يشعر أن حقيقته مخاوفه وهمومه قد أثقلت كاهله، أو يشعر بالحنين لذلك الجزء المعنوي المفقود من حياته، أو يشعر بالوحدة والخوف يملآن حياته؛ في تلك اللحظات يساعد الطريق الترابي الخالي في التخفيف عنه؛ لأنه يدرك أنه حتى في هذه السهول الأناضولية الجرداء قد يرى مختلف صور الجمال، في هذا الطريق النائي عن كل ما هو مألوف يمكن للمرء أن يرى كل شيء واضحاً بمعزل عن حياته، من الغريب أن أجد متعتي في هذه الغربة، فهي تمدني بالسعادة والقوة لمواصلة السفر، وعندما أشعر بالخوف والوحدة والعزلة والشك وعدم الثقة في نفسي أثناء السفر أقهر هذا الشعور وأتغلب عليه، وأنا أفتخر بهذه الانتصارات الصغيرة التي أحققها؛ لأنها بمنزلة المطرقة التي تدق حائط شخصيتي لترأب صدوعه.

حينما يسافر المرء إلى تركيا، وإن كان منفرداً، يمكنه الشعور بالأمان أثناء تأدية هذه الأمور البسيطة، وبمقدوره أن يسترخي حقاً، وهو ما يستحيل أن أفعله في نيويورك حيث ينبغي أن أظل حذرة ومنتبهة على الدوام، في رحلتي عبر تركيا إبان ذلك الفاصل السعيد بين الوطن واستكشاف المجهول عثرتُ على بلد مهياً للمسافرين، مليء بالأيدي الرقيقة ووسائل الراحة وأماكن الفرار من الإجهاد والقلق.

سيدة ماري، تحدثت عن سمة أحببتها في صديقتك فاطمة، وهي روحها الأسرة: ”إنها توافقة جداً للتعرف على عادات البلدان الأخرى،

ولا تنحاز مطلقاً لبلدها كما يفعل أصحاب العقول الضيقة“، أنا أيضاً لا أريد أن يكون عقلي ضيقاً؛ ولهذا أسافر.

حقاً هناك ذكريات سارة ترتبط بالسفر إلى تركيا، ورسائلك الأولى من ”أدرنه“ تعكس حماساً شديداً ومتعاً، ويمكنني استشعار سرورك الشديد لا باكتشاف المجتمع العثماني فحسب بل أيضاً بعالم السفر الواسع، لقد مررت بمجموعة واسعة من تجارب السفر والسياحة مثلي؛ إذ أقمت في إحدى قصور السلطان، كما أقمت في فندق شراغان الذي كان في السابق قصرًا سلطانيًا، ورافقك إلى ”أدرنه“ مجموعة حرس من ٥٠٠ جندي إنكشاري، أما أنا فإن أياي المساعدة التي امتدت إلي وأحاطت بي تكاد تكون جيشًا من الحراس الشخصيين، وتحدثت كذلك بانبهار عن الزخارف والأثاث المترف في القصور، وكم أتمنى لو أمكنك أن تري ترف قصر دولما بهجة الذي شيد عقب رحيلك! حكيته كيف شاهدت السلطان وهو يمر في موكبه، وأنا أيضاً شاهدت شخصيات قيادية سياسية وصافحت رئيسة الوزراء السيدة تانسو تشيلر والسيد سليمان ديميريل أثناء رحلاتي، وتخبرنا إحدى أشهر رسائلك عن المأدبة التي أقامتها لك زوجة السلطان السابق، وأنا أيضاً جلست على مأدبة الطعام مع شخصيات مهمة مثل عمدة إسطنبول خلال احتفالات اجتماع عام ١٩٩٥م للاتحاد الدولي لجمعية أمناء المكاتب، وتكشف لنا رسالة أخرى كيف ارتديت الملابس التركية لتيسير زيارتك للأماكن الدينية، وأنا أيضاً أمتلك زياً خاصاً ارتديه في رحلاتي يغطي ذراعي وساقَي ورأسي، ويساعدني على عبور الشوارع ودخول أي مبنى أشاء في سرية، وقد استمتعت بشراء بابوج ”خف شعبي“ وطربوش ومناديل وجوارب صوفية من السوق لأرتديها في غرفتي في الفندق، إن وصفك لجامع السلمية في أدرنة لا يضارعه أي وصف لأشهر

المؤرخين الفنين المعاصرين، إذ تصوّره بدقة حتى أدق التفاصيل، وقد أسعدني أنك أقمت صداقة مع امرأة تركية هي فاطمة الجميلة؛ لأنني اختبرت بنفسي متعة أن أكسب صداقة أترك وأزورهم مرات ومرات، اعتدت يا سيدة ماري الخروج في نزاهات بالعربة إلى الريف المحيط بمنزلك، وبالمثل قمتُ بتوظيف سائق لأشعر في مغامرة العثور على أطلال كوباداباد أو الخان المفقود، عقب وصولك إلى إسطنبول وجدت إيقاعاً لحياتك يشبه إيقاع حياتي حينما أسافر؛ اتبعت نظاماً ممتعاً من القراءة، والكتابة، وتعلم اللغة التركية، والاستماع إلى الموسيقى، وزيارة الأسواق والشوارع والأحياء القديمة والحمامات والجوامع وتكايا الدراويش، والتنزه بالقوارب صعوداً في بحر البوسفور، كما ترين نحن نستمتع بنفس مباحج السفر في تركيا؛ وأنا أسير على خطاك بكل دقة.

يشع بريق سعادتك - وأنت سائحة - في رسائلك التي كتبها من إسطنبول، وهناك فقرات معينة تتفوق على محاولات كتاب السفر المعاصرين بلورة جوهر هذه المدينة الفريدة، أبحر قاربك صاعداً بحر البوسفور بحدائقه وغاباته ومساجده المترصّة مثل "خزانة عرض تحف زخرفتها أمهر الأيدي"، ووصفك للزيارات التي قمت بها إلى قصر طوب قابي "الباب العالي" وآيا صوفيا وجامع السليمية وجامع السلطان أحمد والهيبودروم "ساحة الألعاب البيزنطية" ومولوي خانة "مقر الدراويش المولويين" ما زال سارياً حتى اليوم.

استمتعت مثلك بمباحج كثيرة خلال رحلاتي في تركيا، وسبحت مثل كليوباترا في سيّدة في ظل مسرح بيزنطي قديم، وشاهدت عروضاً في نفس المدرجات التي جلس فيها الأباطرة اليونان، وخرجت أستكشف العالم من نفس المدينة التي خرج منها الجغرافي الشهير سترابو.

من بين الأمور التي أستمتع بها في تركيا بوجه خاص استكشاف الأشجار القديمة، فكثيراً ما استظللت بالأشجار العتيقة التي زرعها السلاطين في السهول، وظلت صامدة في وجه الأعاصير والمجاعات والحروب، ويبلغ عمر أغلبها ٥٠٠-٦٠٠ عام، ما زالت هذه الأشجار تقف شامخة حتى الآن؛ لتضرب لنا المثل في المرونة، أصبحت أدرك الآن معنى قول الأتراك "لكل شجرة روح"، وسبب توفيقهم أثناء حفلات الزفاف لتعليق شريط زينة على الأشجار، انطبع عدد من هذه الأشجار المهيبة في ذاكرتي، فصرت أتذكرها بوضوح كما أتذكر تفاصيل المساجد التاريخية من الداخل، ومن أهمها: الأشجار الضخمة في مقابر المرادية الصوفية في بورصة، وشجرتا ساحة نزل "ناش خان" في مدينة مرزيفون ومجمع بايزيد الثاني في أماسيا، والشجرة التي تقف كأنها حرس خارج "تشيلي خان" في كرامان، والشجرة القديمة في بورصة التي تفتش الطريق المؤدي إلى جبال أولوداغ، والشجرة التي زرعها سنان في ساحة جامع "أتيك واليدة" في أوسكودار، وذات مرة تناولت الطعام في مطعم فندق في منطقة أغيردير مشيد حول شجرة، وكلما رأيت روحاً ضخمة من هذه الأرواح فكرت كيف نبتت وشهدت أحداث تاريخ تركيا منذ أيام السلطان سليمان القانوني وصولاً إلى أتاتورك وحتى عصرنا الحالي، وكيف تحرص الغابات التركية الوطنية ببرامجها الرائعة على حماية هذه الأشجار والحفاظ عليها للأجيال القادمة.

تجولت في بلدان كثيرة، معروفة وغير معروفة، في مدن كبيرة مزدحمة وفي قرى صغيرة مكونة من عشرة بيوت، وزرت قرى وبلدانا كنت فيها المرأة الوحيدة التي لا تغطي رأسها، ومن المستحيل أن أسرد انطباعاتي الشخصية الخاصة بأكثر من ٢٥٠ مدينة وبلدة وقرية زرتها في تركيا، فقائمة ما أسرّ لبيّ طويلة جداً، لكنني أقر أنني اكتسبت ثروة من الخبرات

والمتع والمباهج المرئية التي تشبع كل الحواس، مثلك يا سيدة ماري. بقدر استمتاعي بقراءة وصفك لرحلاتك أحزني عدم تمكنك من خوض التجارب الممتعة "المخيبة للآمال" المرتبطة بالسفر وحدك، سافرت داخل تركيا في سيارات أجرة وحافلات بين المدن، ولكل منها مزاياها وعيوبها، إن شبكة الحافلات الممتازة التي تربط مختلف أجزاء تركيا اليوم ينبغي أن تكون مثلاً للكفاءة تحتذي بها كل أنظمة المواصلات في العالم، غير أن الأمور لم تكن بنفس الكفاءة منذ عدة أعوام؛ تضمنت طقوس السفر في الماضي مواقف حافلات تعمها الفوضى والهرج والمرج، ومواعيد وصول ومغادرة غير محددة، وباعة جائلين، وتغيير أماكن الجلوس باستمرار - كمن يلعب لعبة الكراسي الموسيقية - لضمان عدم جلوس امرأة بجوار رجل غريب، وتوقف الحافلة كل حين لالتقاط ثلاثة ركاب وعشر ذبابات من الطريق، والحر الرهيب، والمسافرين الذين يحملون صناديق كرتونية مربوطة بخيوط أو حقائب خيش أو حقائب رياضية مزودة بالمؤن من كل أنواع الأطعمة الخفيفة الممكنة من أجل الرحلة الطويلة؛ باختصار كانت تجربة السفر تجسد الطبيعة البشرية في ذروة نشاطها، وعلى صعيد آخر فالسفر بالسيارة يمنح المرء حرية كبيرة لمشاهدة المواقع البعيدة عن الطريق الرئيسة التي لا سبيل للوصول إليها، غير أن الطرق في تركيا تشتهر بالسائقين المتهورين؛ فقد ارتعبت ذات مرة حينما أجبرني جندي يحمل بندقية آلية أن أقف على جانب الطريق لبيتسم في وجهي ويقول: "أتمنى أن يكون طريقك ميسراً وسالماً يا ضيفتنا الكريمة".

هناك تجارب أخرى مخيبة للآمال لم تمر بها يا سيدة ماري؛ نظراً لأنك نعمت دائماً بصحبة المرشدين والمترجمين و ٥٠٠ جندي إنكشاري؛ فعلى سبيل المثال كان "مكتب السياحة" مصدرًا مستمرًا

للحيرة والارتباك؛ إذ كانت مكاتب السياحة منذ ثلاثين عاماً ضعيفة المستوى إلى حد بعيد، فكانت أماكن متربة مغبرة ذات مقاعد بلاستيكية بالية ومائدة قهوة منخفضة تتناثر عليها بعض أدلة السفر الغربية المطبوعة باللغة الأجنبية الوحيدة التي لا يمكن للمرء قراءتها، وحينما يدخل السائح يجد نفسه دائماً العميل الوحيد في المكان، وبالرغم من رغبة المكاتب الصادقة في خدمة العميل فإن الموظفين لم يتمكنوا من تقديم خدمات ذات قيمة، بل قد يكون طلب المساعدة من الصيدليات المجاورة أكثر نفعاً لأنها كانت مصادر ممتازة للمعلومات والاتجاهات.

مما زاد الوضع سوءاً بالنسبة لسائح مسافر بمفرده باعة السجاد الذين يلاحقونه طوال اليوم، ويتبعون كل خطواته، ويباغتونه من الخلف كلما استدار، ويجبرونه في كثير من الأحيان على الفرار من الشارع والاحتماء بغرفة الفندق للهرب من مضايقاتهم، حتى إنني أشك في قدرة جنودك الإنكشاريين الخمسمائة على تفريق هذا الجمع القاسي من الباعة، في الماضي قبل اختراع ماكينات صرف النقود الآلية كان صرف العملة من المصرف عملية تستغرق نصف النهار، مع الحاجة إلى ملء عدة نماذج والوقوف في صفوف طويلة والإجابة على عدة أسئلة.

وأيضاً فبعض الأمور البسيطة قد تكون خطيرة أثناء التجول في تركيا؛ فأرصفت الشوارع الرخامية الجميلة قد تكون زلقة إلى حد التسبب في موتك، ومن جانب آخر فالأرصفت الإسمنتية مليئة بالحفر والبلاط غير المثبت الذي قد يتسبب في تعثرك، ونادراً ما توجد حواجز جانبية على المنحدرات، أما أشد الأخطار فتكمن في مجموعات الأطفال الصغار الذين يحومون حولك كسرب من الحيتان التي تشتم رائحة دماء، زرت مدينة سيرت في أحد الأعوام فبدأ الأطفال يتبعوني بأعداد هائلة،

وحيثما شعرت بالضيق وسألت رجلاً عن الاتجاهات أشفق عليّ وقرر أن يصاحبني لمساعدتي في العثور على المسجد الذي أبحث عنه، كان المسجد يقع في حي فقير من أحياء المدينة، وعندما وصلنا إليه كنا محاطين بأكثر من ٦٠ طفلاً أغلبهم من الصبيان بين سن الرابعة والتاسعة، زادت خطورة الأطفال المحتشدين الذين ظلوا يصرخون ويتقافزون ويتدافعون ويمسكون بالأغراض ويتجادبونها ويقذفونها، وللمرة الأولى في حياتي خشيت أن تتقطع أطرافي من شدة الجذب، وكان الرجل أكثر خوفاً مني على حياتي ما زاد من رعبتي، في تلك اللحظة قررت أن أجعل من نفسي لنفسه حارساً إنكشاريّاً خاصّاً، وصرخت بأعلى صوت "هذا يكفي!" ونجحت الخطة، وتمكنا من شق طريقنا عبر هذا الحشد، أخشى أن تكون تلك آخر مرة يقدم فيها هذا الرجل العون لأي سائح يحتاج المساعدة، أليس أمراً ساخراً أن تكون المرة الوحيدة التي أشعر فيها بالخطر وأنا في تركيا سببها الأطفال!

هناك خطر آخر شائع جداً للأسف في تركيا؛ لا يمكنني أن أنسى مطلقاً الهزتين الأرضيتين اللتين شعرت بهما في جنوب تركيا، تركت أولاهما ١١٠ قتلى عام ١٩٩٨م وكانت بمنزلة نذير للمأساة التي وقعت في العام التالي.

بالرغم من كل التجارب المخيبة للأمال في السفر، فإن مشاهدة الريف التركي المذهل تعوض كل شيء، إن الطريق الترابي القادم من إنجيسو إلى أوجوب مشير إلى حد بعيد؛ فهو طريق ملتف يصعد إلى أعلى التل ليكشف فجأة عن مشهد أسر شامل لوادي جوريم في كابادوكيا، أما رحلة السيارة من نيدي إلى تشيفتيهان مروراً بسلسلة جبال آداغلاز وبولكار عبر ممر صقلية الشهير الذي عبره الصليبيون ويعد من أندر ممرات جبال طوروس فقد أتاحت لي فرصة لرؤية بعض من أجمل المشاهد التي رأيتها

في تركيا وفي العالم كله، وفي الطريق إلى أرتفين الذي يمر عبر حقول أرداهان المكسوة بالعشب الأخضر والأزهار البرية شاهدت الأفراس البرية تعدو بحُرّيّة، ومهورها تتراقص خلفها، ومن أحب الرحلات إلى قلبي الرحلة المذهلة للصعود من توقات إلى سيواس عبر طريق تشاملويل، الذي يتميز بتقديم مشهد بانورامي للبلد كله من أعلى، وربما أمكنك أن ترى كلاب الكانجال تحرس الغنم في الحقول الطينية بالأسفل إذا أنعمت النظر، أستمتع بالفعل بتلك الساعات التي أقضيها في هذه الطرق، ولا يكسر الصمت سوى صوت الريح تداعب نافذة السيارة، وأعود من تلك الرحلات محملة بكثير من الذكريات عن السكون والتناغم، فأستعيد هذه اللحظات المضيئة في ليالي المدينة القاتمة التي تحبسني جدرانها الإسمتية، وأتذكر هذه الرحلات المثالية بالسيارة وتلك العزلة الخلابة التي تشكل جزءاً عزيزاً خالداً من ذكرياتي أثناء السفر.

سيده ماري، يمكنني استشعار مدى سعادتك بالحياة في تركيا، وكما قلتُ في رسالة سابقة وسأظل أقول: لا يمكنني أن أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن إحساس السعادة الفطرية والرضا اللذين أشعر بهما وأنا في تركيا، تتجلى حقيقة شعورك بوضوح في رسائلك الأخيرة من إسطنبول التي يشوبها حزن دفين لا يضطرارك للرحيل، ”أستعد حالياً لمغادرة القسطنطينية، ويؤسفني ذلك؛ فقد اعتدت على الهواء هنا وتعلمت اللغة، أشعر بالراحة هنا“، وعدت إلى وطنك محملة بنبع من الذكريات الخالدة مثلما أفعل كل مرة، يمكنك أن تنهلي منه متى شئت، أما أنا فقد بليت في المطار، وبكى الآخرون لرحيلي مع أنني لم أبق معهم سوى أيام قليلة، وأنا أيضاً شاهدت بعض النساء تسكبن الماء على عتبة بابهنّ تيمناً بأن تسير رحلتي بسلاسة، وأنا أيضاً طمأنني وكيل سفري لدى رؤية دموعي قائلاً: ”ستعودين إلينا مرة أخرى، أعدك بذلك!“

لكنك اضطررت للرحيل، ولدى عودتك إلى وطنك عرفت مرة أخرى معنى أن تكوني مسافرة، ومع هذا سعدت بالعودة إلى الوطن؛ فبالرغم من حبنا للسفر واعتزازنا بالبلدان الأجنبية لا يوجد مكان يضاهي الوطن، إن إدراك ذلك والسعادة بالعودة للوطن من أمتع مزايا عبور الجسور، أشعر أن بمقدوري تذوق المشروبات الباردة التي تناولتها كما تصفينها في إحدى أكثر رسائلك تأثيراً:

”لا يسعني أن أنظر بحيادية إلى وطني؛ لا بد أن الانحياز سمة أضفناها علينا الطبيعة لتفادي الحيرة، وهي التأثير الناتج عن التعطش الطموح للمعرفة الذي يمنعا تكويننا من الاستمتاع به، كل ما نحصل عليه منها هو رغبة عقيمة في دمج المباحج ووسائل الراحة المختلفة المتوفرة في أجزاء متباينة من العالم لا يمكن لها أن تجتمع في مكان واحد.

بعد أن قرأت كل ما تتيحه اللغات التي أتقنها، وبعد أن أفنيت بصري في الدراسة منتصف الليل، أتمنى راحة البال التي تنعم بها خادمة تحلب الأبقار، وردية الخدين، لا يداخلها شك وهي تنصت بخشوع إلى المواعظ؛ فشعورها تجاه واجبها في الحياة لم تربكه التساؤلات التافهة التي يطرحها العلماء، الذين قد يكونون أكثر منها علماء، لكنهم يظنون في النهاية جاهلين.

عقب أن تجولت في أجزاء من آسيا وأفريقيا وأغلب أوروبا، أعتقد أن النبيل الإنجليزي الحقيقي هو من يجد أن مذاق الثمار الإفريقية لا يضاهي مذاق التفاح الذهبي، وأن طعم اللحم الإيطالي لا يوازي طعم قطعة من اللحم البقري المحلي، وباختصار لا توجد متعة كاملة في الحياة خارج إنجلترا العريقة، عسى

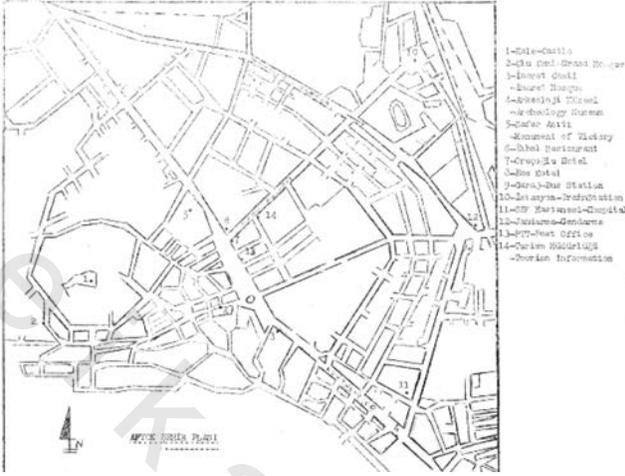
أن يظل هذا هو رأيي فيما بقي من حياتي، ونظرًا لأنني مضطرة للرضا بالقدر الضئيل من ضوء الشمس الذي يصلنا فليتني أنسى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة“.

إنَّ العودة إلى الوطن تخفف بالفعل من حدة الحزن لفراق تركيا، غير أن هذا البلد قد غدا بمنزلة وطن لكِ ولي، ونحن ممتنون لذلك، لا أهتم بالانطلاق في رحلات حول العالم لاكتشاف ملايين البلاد، ولا أظن أن القيام بذلك سيثري شخصيتي، فأنا لا أسعى للمباهاة بعدد الدول والقارات التي زرتها، بل أحلم بأن أستمتع بالسفر على طريقي، وأريد أن أكون سعيدة جدًا في مكان اعتبرته وطني، مكان يجعلني ممتنة للعودة إلى وطني الحقيقي، وقد منحني السفر إلى تركيا هذه المتعة.

في النهاية كيف أجيب على السؤال حول سبب سفري إلى تركيا مرارًا وتكرارًا! ماذا يجذبني إليها كل عام كأنني حاجٌّ يؤدي شعائر مقدسة؟ لأكون صادقة لا أظن الأمر يتعلق فقط بالأحجار المعبرة، والجسور، والأشجار البالغة ٥٠٠ عام، والطريق المفتوح؛ بل ببساطة لأن تركيا مليئة بالأترك.

صديقتكم

كاثرين براننج



خريطة مرسومة باليد لمدينة أفين عام ١٩١٣



خبر صحفي حول شجرة تبلغ
ألف عام بالقرب من أرزينجان



شجرة على طريق أولوداغ في بورصة



في الطريق بالقرب من أرضروم



شجرة الدلب في بورصة



قطار "الترام" في فونيا

İLLER

01 Adana	26 Ekişehir	51 Niğde
02 Adıyaman	27 Gaziantep	52 Ordu
03 Afyon	28 Giresun	53 Rize
04 Ağrı	29 Gümüşhane	54 Sakarya
05 Amasya	30 Hakkari	55 Samsun
06 Ankara	31 Hatay	56 Siirt
07 Antalya	32 Isparta	57 Sinop
08 Artvin	33 İçel	58 Sivas
09 Aydın	34 İstanbul	59 Tekirdağ
10 Balıkesir	35 İzmir	60 Tokat
11 Bilecik	36 Kars	61 Trabzon
12 Bingöl	37 Kastamonu	62 Tunceli
13 Bitlis	38 Kayseri	63 Şanlı Urfa
14 Bolu	39 Kırklareli	64 Uşak
15 Burdur	40 Kırşehir	65 Van
16 Bursa	41 Kocaeli	66 Yozgat
17 Canakkale	42 Konya	67 Zonguldak
18 Çankırı	43 Kütahya	68 Aksaray
19 Çorum	44 Malatya	69 Bayburt
20 Denizli	45 Manisa	70 KARAMAN
21 Diyarbakır	46 K. Maraş	71 Kırıkkale
22 Edirne	47 Mardin	72 Batman
23 Elazığ	48 Muğla	73 Şırnak
24 Erzurum	49 Muş	74 Bartın
25 Erzurum	50 Nevşehir	75

أرقام اللوحات المعدنية في المقاطعات التركية



منطقة تسجيل الدخول، الخطوط الجوية التركية في مطار "جون إف كينيدي"
في نيويورك



مرفأ سينوب



ترسانة سفن هاليتش (الخليج)



مكتب تذاكر محطة الحافلات، مالاطيا



فندق أونيه على البحر الأسود



أغيردير



قرامان



قوس قزح بالقرب من أرزينجان